تأملات في آيات

مدخل لفهم القرآن الكريم

عبد الله بن ناصر الصبيح

ح عبدالله ناصر الصبيح ، 1444هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصبيح ، عبدالله بن ناصر

تأملات في آيات مدخل لفهم القرآن الكريم. / عبدالله بن ناصر

الصبيح – ط1. .- الرياض ، 1444هـ

304 ص 24 X 17 ..سم

ردمك: 978-603-04-4139-6

1- القرآن – مباحث عامة أ. العنوان

ديوي 229 1444 /8043

رقم الإيداع: 1444/8043
ردمك: 978-603-04-4139-6

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى والدتي منيرة بنت عبد الله بن عبد العزيز الصبيح؛ فهي أول من علمني القرآن وفتق ذهني على معانيه.

وإلى والدي ناصر بن عبد الله الصبيح؛ فهو الذي شجعني على قراءة القرآن وحفظه، رحمهما الله.

وأسأل الله أن يكون هذا الكتاب من العمل الباقي لوالدَي الذي يتتابع لهما أجره وبره، وأن يتقبله لهما بقبول حسن، ويجزيهما عني خير ما جزى عباده الصالحين.

وأرجو من كل من قرأه أن يدعو لهما.

ولكل من علَّمني القرآن.

وكل من اطلع على الكتاب واستحسنه وشَجَّعني على نشره.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾، والصلاة والسلام على من تلقى منه القرآن فقرأه وأقرأه أمته، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، وبعد:

فهذه وقفات مع آيات، عرضت أثناء قراءة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، في أوقات متفرقة، وهذه التأملات تقييد لانفعال النفس وتأثرها، وما ينقدح فيها من معنى أثناء القراءة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وليس القصد منها تفسير الآيات، فإن كتب التفسير حافلة متنوعة، قد استوعبت وجمعت الكثير الطيب المبارك من تفسير آيات القرآن، وأما التفاعل مع الآيات والتأثر بها، وإشراق المعاني منها أثناء القراءة المتدبرة، فهي عطاءات متجددة وينال كلٌّ منها بحسب ما فُتح عليه، ويغترف كل وارد حسب سعة إنائه.

والملاحظ أن القرآن الكريم تتسع معانيه، وتفتح خزائنه، بطول الصحبة، وإدمان النظر، وكثرة الترداد، وهذا من وجوه إعجاز القرآن، فهو لا يزال يعطي ما قُرئ،

وتتدفق معانيه كلما اغْتُرفت، بعكس كلام البشر، وكتبهم، والتي كثيرا ما تُنتزح من أول غرفة، ويُستهلك معناها مع أول نظرة. وليس أثقل على النفس من سماع الكلام المعاد، إلا هذا القرآن فلا يخلق من كثرة الرد.

وهذه النفحات والمعاني التي تُؤخذ من القراءة المباشرة للقرآن، هي مما طال ندم كثير من العلماء على عدم التفرغ له، وغالب هؤلاء إنما ذكروا ذلك في آخر عمرهم، وهو زمن نضجهم، واكتمال معارفهم، كشيخ الإسلام ابن تيمية، فقال في آخر عمره: «ندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»(١). وذكر أحد شيوخنا أنه أحصى قرابة العشرين من العلماء ممن ندموا على عدم صرف العمر في القرآن، بدءاً من سفيان الثوري وانتهاء بالشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وهؤلاء الذين ندموا هذا الندم لم يكونوا في مرحلة من مراحل حياتهم مضيعين للقرآن ولا بعيدين عنه، فشيخ الإسلام ابن تيمية، عاش مع القرآن عمره كله، وكان يختم القرآن كل عشرة أيام، ولكن هذا الندم حصل لما تقدم بهم العمر، وحصل لهم النضج المعرفي، فأصبح وعيهم بمعاني القرآن أكثر اكتمالاً، وإدراكهم لمعانيه أبعد غوراً.

وقد كنت أقرأ القرآن عند كتابة هذه الخطرات من غير أن أستصحب كتاب تفسير، فأقف عندما يستوقفني، وأكتب عنده ما يظهر لي، فإذا كتبته وحررته، رجعت من بعد إلى كتب التفسير، لأستوثق مما كتبت، وهل يدل كلام العلماء عليه أو يشير إليه أو يوحي به؟

وكان أكثر رجوعي إلى تفسير الإمام الطاهر بن عاشور، وتفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والذي كان له تجربة مشابهة، فقد جعل من قراءة القرآن في شهر رمضان من عام (١٣٤٧ هـ) قراءة تقييد لما يظهر له من الفوائد والتأملات، والتي جمعها بعد ذلك في كتابه: «المواهب الربانية، في الفوائد القرآنية».

---

(١) ينظر: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٣٤٤).

وهذه التأملات تحضر معانيها عند آيات بعينها، يكون وقعها على النفس قوياً لتهيئها لذلك، فيكتب المتأمل وقفة عند آية ربما قرأها قبل ذلك فلم يظهر له فيها ما ظهر، لأنه لم يكن في حال التهيؤ لاستقبال هذا المعنى، بينما يكون في حال أخرى أكثر تهيؤاً لذلك، وهذا ما نلاحظه عند سماع القرآن، والخشوع عند تلاوته، فربما استوقفت الآية وأثرت واستدرت العبرات في حال خاصة، وحين يقرأها القارئ في حال أخرى فلا يحصل له ذاك التأثر والخشوع.

ولم أكن مبادراً لإخراج ما كتبت، لأني كنت أستأني بها لتنضج الكتابة أكثر، ولأضم إليها نظائرها مما يجِّد بعد ذلك، وبعد التشاور مع أبنائي وبعض زملائي أشاروا علي بإخراجها على حالها، وقد اقتنعت برأيهم؛ لأنه ما قتل الأعمال كالمطال وطلب الكمال، ولذا استعنت بالله على إخراج ما تيسر منها، عسى أن يكون في ذلك تجديدٌ للعزم على إخراج ما بقي، وما يفتح الله به بعد ذلك، وعسى أن يكون في ذلك دلالة لمن يقرأها أن يسلك هذا الطريق في التأمل، والتدبر والتأثر، سائلا الله أن ينفعنا وأن يرفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، والحمد لله رب العالمين.

عبد الله بن ناصر الصبيح

قصة التأملات

الحديث عن قصة التأملات بعث في روحاً جديدة، ونقلني من عالم المرض والانكفاء على الذات إلى عالم الإنجاز والبحث، وأرجعني أكثر من عشرين سنة للوراء.

وما كنت أحسب أن فيها جديداً، ولكن هذه التأملات نوع من تدارس القرآن، ومن تأمل الباحث الذي يعاني مع المصطلحات والمفاهيم الوافدة في الثقافة والأفكار، ويريد أن يسلك طريقاً مستقيماً.

وهذه التأملات ليست تفسيراً أو استدراكاً على العلماء السابقين، فإني أعتقد أن كل التوفيق في موافقة من تقدم من علماء الأمة وأئمتها، لكنها معايشةٌ لقارئٍ يريد أن يهتدي في رؤيته المعرفية بهداية القرآن، ومحاولةٌ للانتقال من تلاوة القرآن لمجرد التبرك إلى تلاوته للاستهداء وتصحيح المعرفة.

في أثناء دراستي علم النفس والعلوم الاجتماعية كانت تواجهني مصطلحات نفسية وفكرية كثيرة، وهذه المصطلحات الفكرية لها سطوتها وبخاصة لدى دارسي العلوم الاجتماعية، فهي مؤثرة عليهم يتلقونها وكأنها قطعيات، ويتعاملون معها في أفضل الأحوال بمواءمة تصوراتهم الفكرية والفلسفية حتى تتفق معها.

وأضرب لذلك مثلين: الأول: تجد عند غالب المثقفين أن القضية الأولى في الإصلاح الاجتماعي والسياسي هي الليبرالية أو الديمقراطية، وأن كل تصوّر يخالف ذلك فهو تصوّر خاطئ، وبناءً على ذلك أجازوا الرِدّة، وألا تتدخل الدولة في حياة الأفراد وتصرفاتهم العامة وفقا للفلسفة الليبرالية.

ولذا فمعظم من كَتب عن الديمقراطية يُعلي من شأنها، وقد سبق أن كتبت عنها كُتيّباً منذ أكثر من خمس عشرة سنة عنوانه: «الديمقراطية في مجتمع مسلم»، تناولت فيه هذه النظم وكيف نتعامل معها، وكيف نُقاربها من المجتمع المسلم، وكيف نستفيد منها ونعالج بعض إشكالاتها.

فهذا الاقتناع بضرورتها والحاجة إليها مع أن في القرآن ما ينافي بعض ما فيها، ومن يذهب هذا المذهب ربما لا يتصوّر أنه بذلك قدّم شيئاً على قول الله وقول الرسول ﷺ.

ومما ينبغي أن يلاحظه الباحث أن الأفكار في العلوم الاجتماعية من علم النفس ونحوه ذات منزع عنصري تفترض أن كل التصورات الذهنية الفلسفية تتجه اتجاهاً واحداً صاعداً، وتنتقل من التقليد لتصل إلى تصور غربي، ولعل من أبرز من مثّل ذلك في صورة صارخة فوكو ياما في كتابه: «نهاية التاريخ»، والذي يرى أن النموذج الأخير الذي ينبغي أن ينتهي له الانسان هو النموذج الغربي.

فالقضايا الذهنية الكبرى ذات منزع أوروبي عنصري تفترض التخلف في جميع الحضارات الأخرى، والتخلف في المفاهيم التي عندهم، مثل: «قانون الحياة» لدوركايم الذي يرى نزوع الأفكار وتطورها بحيث تبدأ من الدين ثم تنتهي إلى العلم كما يقولون، وفكرة الطوطمية في المجتمعات البدائية هي نوع من العنصرية الفكرية البغيضة التي تفترض التخلف عند الآخرين والتطور عند الإنسان الأوروبي،

فكان عندي تنبُّه لبعض هذه القضايا ولكن لاحظت أن بعض الشباب المثقف لا يُحسن الرجوع للقرآن في قضاياه الفكرية، وإنما يحاول إذا اجتهد أن يقيم من القرآن مصدراً آخر للقضايا الفكرية التي عنده، ويكون عنده مصادر أخرى يرجع إليها. وقد يرجع إلى القرآن ولكن لا يُحسن فهمه، ولا يُحسن أن يستفيد منه في الإجابة عن أسئلته.

ولاحظتُ أيضًا من خلال تدريسي أن الطالب لا يُحسن الاستفادة من القرآن وفهمه، ولا يضع للقرآن قيمته المعرفية في بحثه، فكنت أطلب من الطلاب، وبعضهم في مرحلة الماجستير، فأوزع عليهم أجزاء من القرآن وأقول لهم: أريدك أن تستخرج المفاهيم النفسية التي في هذا الجزء وتوجه معناها، وأن تربط بين هذا المصطلح والمصطلحات النفسية التي درستها، فكان بعض الطلاب يُخفقون فلا يدري بعضهم كيف يفعل، فيصور الصفحات الكثيرة من كتب التفسير ويأتي بها، فأقول: ليس هذا المطلوب، المطلوب هو أن تفهم هذا وتُعلّق عليه، وبعضهم لا يحسن الربط بين المفاهيم القرآنية والمفاهيم النفسية التي درسها، وبعضهم لا يُحسن نقد هذه المفاهيم النفسية.

فعندهم ضعف في النقل، وضعف في الربط، وضعف في النقد، ومع ذلك فإن بعض الطلاب الذين ساروا معي في هذا الأمر بجدية سرّهم ذلك كثيراً، ووجدوا أنهم تعلموا شيئًا جديداً لم يتعلموه من قبل، ونتج عنه بعض الرسائل في الماجستير، وأحمد الله سبحانه أنْ لم تكن التجربة قاتمة، بل كان فيها خير كثير، ولكنها تحتاج إلى قدر من المتابعة والارشاد.

إن هذه المفاهيم الغربية لها سطوة على المثقف المسلم، ومن الصعب أن تجد مثقفًا يتحفظ على بعض هذه المفاهيم. ومنها مفهوم حرية التعبير، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا

عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، لتُسقط فكرة الليبرالية تماماً، وأن من حق الدولة أن تتدخل في حياة الناس من أجل ضبطها، وإزالة المنكر منها، وليس هذا لتقييد الناس واستعبادهم، وإنما من أجل إرشادهم في حياتهم. فكانت هذه الآية إجابة حاسمة في موطن الليبرالية في الفكر عند المسلم، كيف ينبغي أن يُنظر إليها.

وهذا جعلني أتلمّس إجابات القرآن عن القضايا الفكرية التي نعيشها، وبحكم تخصصي في علم النفس الاجتماعي، نظرت في القضايا الفكرية التي يمكن أن أربط بينها وبين بعض الآيات.

وعندما أقرأ الآية أستحضر المصطلح النفسي وأقيمُ نوعا من الموازنة، وقد لا أذكر المصطلح النفسي ولا أتحدث عنه، لكن أستحضره وأناقشه وأرد عليه من خلال منطوق الآية.

والمقارنة التي تحدثت عنها ذكرتها في كتابي: «التمهيد في التأصيل» عن النفس المطمئنة، والنفس الأمّارة، والنفس اللوامة. وقد رأى البعض أن هذه تتفق مع ما ذكره فرويد في أقسام النفس، الـ «هو، والأنا، والأنا المستقلة»، وقالوا إن الإسلام سبقه. وهذه من الأخطاء التي وقع فيها من حاولوا أن يُقربوا المفاهيم النفسية وأن يبثوها من خلال بعض الآيات القرآنية، وقد نبّهت إلى هذا وناقشته.

وكانت بداية هذه التأملات أني عزمت على قراءة كُتيّب مُتيسّر من التفسير، ووجدت تفسير الجلالين فأخذته وقرأت فيه، وكان هذا قبل أكثر من عشرين سنة، لكن علاقتي بالتأملات تفوق هذا كثيراً لكن هذه البداية لكتابة التأملات.

فدونت بعض التأملات في تفسير الجلالين، ثم شعرت بتفاعل وفائدةٍ لي، وكنت أدوّن لنفسي وليس للنشر، ثم يسّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التقنية الحديثة في الجوال،

فوجدت أنه يمكنني أن أفتح البرنامج وأضغط على الآية وأعلّق عليها، فكان في هذا العمل يُسر كبير.

ثم جمعت ما وجدته، فإذا هو أكثر من (٤٠٠) صفحة، فشجعني هذا على الاستمرار، وكنت في كل مرة أقرأ القرآن أرجع إلى ما كتبت وأُعدّل وأُصحّح، فكانت صحبة مثمرة مع كتاب الله، ومن جميل ما وجدت أن تلك اللحظات التي كنت أستقطعها عن المشاغل وأقرأ فيها وأعلّق، وجدتها الآن معي في هذا العارض الصحي حاضرةً معي تلازمني وآنس بها.

وكنت في خلال هذه التأملات، أجد ما يستفز الذهن، وما يساعد الروح على الإشراق، وأجد أجوبة على القضايا الفكرية التي تواجه الشاب المسلم، وذكرت بعضها في التأملات، ووجدت إجابات على بعض المفاهيم النفسية، وبعض النظريات الاجتماعية فأظن أن الشاب المسلم لو قرأها، لوجد فيها إجابات على بعض القضايا الفكرية والإشكالات الثقافية التي يعيشها.

وهي تجربة استفدت منها، وقرأت فيها القرآن كثيراً، وأعطتني أُنسًا وإشراقًا، وفوائد هي من أفضال الله علي، وندمت كثيراً أنني لم أعط القرآن من وقتي وفكري ما يجب له.

ثم بدأت مرحلة أخرى، هي أنني أجمع الآيات التي لها علاقة بموضوع معين، وربما أتوسع فيها في نظرية المعرفة، وفي المنهج العلمي ونحو ذلك.. فكتبت فيه، وفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علي فيه فتوحات طيبة.

والقرآن ما لم يفرح به العبد ويعتقد عصمته وأنه هدى الله، وله السيطرة العليا على مكوناته المعرفية، فلن يُحصِّل من خزائنه وفتوحاته التي تشرق على النفس بقدر إيمانها ويقينها.

ومن أراد أن يدرس القرآن دراسةً حقيقية ويفهمه، عليه أن يمتلئ قلبه بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبتعظيمه جَلَّ وَعَلَا، وبالفرح بالقرآن، فإن في القرآن محرّكات القلوب والعقول والمشاعر النفسية، وهذا لا يكون إلا بالاستماع إلى القرآن، والإصاخة إليه، وأن يميل الإنسان بأذنه وقلبه للقرآن.

كما في قصة الجن التي أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها أنهم لما سمعوا القرآن قالوا: ﴿أَنْصِتُوا﴾، فأصغوا إليه، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾، وهذا من شدة تأثرهم بالقرآن.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعينني وأن يوفقني وأن يسددني على إكمال ما بدأت.

كما أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفع بها من يطّلع عليها، وأن تكون موقظة لمن قرأها للنظر في القرآن بتدبر واعتبار، يفتح القلوب والبصائر على ذخائره ومعانيه، كما أسأله أن يجعلها من العلم الذي ينتفع به، ويتتابع أجره وبره، وأن تكون من علمي الباقي من بعدي نفعـًا وأجراً.

وهو حسبنا ونعم الوكيل.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

تميزت هذه السورة أنها خلت من الأمر، وأنها ثناء من العبد على الله سبحانه، وطلب الهداية منه إلى الصراط المستقيم.

وفهم هذه السورة لا يتم بغير استحضار حديثين ثبتا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأول في فضلها، والثاني في معانيها.

ورَدَ فِي فضلها أحاديث مِنها: ما أخْرَجَهُ البُخارِيُّ وأحْمَدُ وأبُو داوُدَ والنَّسائِيُّ مِن حَدِيثِ أبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلّى أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لَهُ: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ، قالَ: فَأخَذَ بِيَدِي، فَلَمّا أرادَ أنْ يَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّكَ قُلْتَ: لَأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ، قالَ: نَعَمْ -الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ- هِيَ السَّبْعُ المَثانِي والقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»[١]. وأخْرَجَ أحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وصَحَّحَهُ، مِن حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ له: «**أتُحِبُّ أنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْراةِ ولا فِي الإنْجِيلِ ولا فِي الزَّبُورِ ولا فِي الفُرْقانِ مِثْلُها؟ ثُمَّ أخْبَرَهُ أنَّها الفاتِحَةُ**»[٢].

(١) «مسند أحمد» (١٧٨٥١)، و«صحيح البخاري» (٤٦٤٧)، و«سنن أبي داود» (١٤٥٨)، و«سنن النسائي» (٩١٣).
(٢) «مسند أحمد» (٩٣٤٥)، و«سنن الترمذي» (٢٨٧٥).

وأخْرَجَ أحْمَدُ فِي المُسْنَدِ من حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جابِرٍ أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لَهُ: «**ألا أُخْبِرُكَ بِأخْيَرِ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟**. قُلْتُ: بَلى، يا رَسُولَ اللهِ. قالَ: **اقْرَأِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ حَتّى تَخْتِمَها**»(١). وفِي إسْنادِهِ ابْنُ عَقِيلٍ، وقَدِ احْتَجَّ بِهِ كِبارُ الأئِمَّةِ، وبَقِيَّةُ رِجالِهِ ثِقاتٌ.

وفي بيان معناها قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن اللهَ تعالى يقولُ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قالَ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **قالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ:** ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ **قالَ اللهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِ. وإذا قالَ:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ **قال اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **مَجَّدَنِي عَبْدِي**، وفي روايةٍ: **فوَّضَ إليَّ عبدي. وإذا قالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قال: فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فإذا قالَ:** ﴿اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالينَ﴾ **قال: فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»(٢).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

«فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق، وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهي الآية التي قال الله فيها: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**» لأن ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ واحدة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الثانية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾»(٣).

والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أخبر صحابته عن فضلها، إنما يريد منهم أن يستحضروا فضلها حين تلاوتها، ويريد منهم أن يستغنوا بالقرآن عن سواه، وأخبرهم أنه لم ينزل مثل الفاتحة، لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور.

---

(١) «مسند أحمد» (١٧٥٩٧).

(٢) «مسند أحمد» (٧٢٩١)، و«صحيح مسلم» (٣٩٥)، و«سنن أبي داود» (٨٢١)، و«سنن الترمذي» (٢٩٥٣)، و«سنن النسائي» (٩٠٩).

(٣) «تفسير الفاتحة والبقرة» لابن عثيمين (١/ ٨).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

هذه أول آية في القرآن بعد البسملة، فالقارئ يحمد الله سبحانه مستشعرا نعمه وفضله، ثم يقرأ بعدها صفاته: ﴿الرحمن الرحيم﴾، فهو الراحم لخلقة مسلمهم وكافرهم، ومطيعهم وعاصيهم، فهو رحمن بخلقه، رحيم بهم، ثم يقرأ ﴿ملك يوم الدين﴾ فالكل راجع إليه سبحانه، وهو محاسبهم، فيثيب من أطاعه، ويعاقب من عصاه.

الحمد يتجه لغة إلى الذات، فالمحمود يُحمَد لأنه يستحق الحمد لكمال صفاته وجميل فعاله، أما الشكر فيتجه إلى الفعل نفسه، وربما شكر الإنسان شخصا غير محمود لأنه أحسن إليه، والله سبحانه محمود في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾:

هنا دعاء بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وفي السورة التالية بيان لطريق الهداية وأخبر أن هذا الكتاب كله هدى للمتقين: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهو يهدي العباد إلى الصراط المستقيم.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾:

والصراط المستقيم ليس تصورا ذهنيا مجردا، وإحدى ميزاته العظيمة أن هناك من يمثله في الحياة العامة وهم المنعم عليهم، وورد بيان هؤلاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، وإذا كان النبيون والصديقون يمثلون الفئة الأعلى في تطبيق الصراط المستقيم فإن الصالحين فئة عريضة ممتدة عبر الزمان والمكان يراهم الشخص أينما اتجه. والصالحون لهم صفات بينتها آية سورة آل عمران، قال تعالى:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأمرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وأبرز صفاتهم بعد الإيمان بالله أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في عمل الخيرات، فهم قوم إيجابيون.

والصراط المستقيم لا ينفصل عن الجماعة التي تحمله، ووجودها ضروري لتمثيله ومعرفته وبقائه في حياة الناس.

وهنا فائدة: فالصراط الذي لا سالك فيه ليس صراطا مستقيما، فكل هدى مزعوم لم يعمل به أحد، وليس لك فيه إمام من الصالحين ليس هدى.

وإحدى صفات الصراط المستقيم أنه طريق عملي، لأنه مطبق في حياة الناس وله أتباع يسيرون عليه.

وبيان الصراط المستقيم لا يتضح من غير بيان ما يضاده، وهو الفساد العلمي والفساد العملي، والأول فساد في الإرادات، والثاني فساد في الشهوات.

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾:

هذا افتتاح عجيب للسورة خاصة وللقرآن عامة، فهو يطمئن القارئ بأن ما يقرأه خال من الريب والشك فليطمئن، وعليه أن يصرف جهده إلى الفهم والتدبر في آياته، فهو هدى لمن قرأه. وأكثر العباد استفادة منه وهداية به هم الذين زكت نفوسهم وتجردوا لطلب الحق. وليس في الآية نفي الهداية عن غير المتقين، فهم أي غير المتقين قد يهتدون به، والذي نفهمه من الآية أن الأسرع والأكمل اهتداء هم المتقون. والهداية نوعان: هداية دلالة وهذه لكل أحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، والهداية الأخرى هداية قبول، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وهذه الهداية تقتضي عون الله للعبد فيقبل قلبه الحق، ومن اعرض واستكبر فلن يعينه الله كما أخبر سبحانه عن قوم ثمود.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

هاتان الآيتان تبينان صفات المتقين، وبيان صفاتهم هو بيان لما تنتجه التقوى

عند الإنسان أو بيان لما ينتج التقوى عند الإنسان، فالتقوى يمكن أن ينظر لها هنا على أنها سبب أو نتيجة.

وهذا القرآن نزل باللسان العربي فهو مبين، وهذا يتضح من كلمة تقوى هنا، فالعربي بمجرد سماع الكلمة يدرك المقصود منها ولو لم يسمع تعريفا لها من قبل، فالكلمة اسم أو مصدر من وقى، وهو يدل على وضع الإنسان وقاية مادية أو مكانية بينه وبين ما لا يَحسُن. فالعربي إذا سمع هذه الكلمة فهم دلالتها والمطلوب منه ليتصف بها. ثم بينت الآيتان أعمالا معينة إما أن تُنتِجَ التقوى عند العبد فتكون التقوى حينئذ نتيجة، أو تُنتِجَها التقوى عند العبد فتكون التقوى حينئذ سببا. وأول ما يتصف به المتقون الإيمان بالغيب ومن لا يؤمن بالغيب لا ينتفع بالقرآن، ومن أعمالهم أن لهم مجاهدة مع أنفسهم بتزكيتها وتهذيبها بإقامة الصلاة، ولهم إحسان إلى الخلق ببذل المال لهم، وهم يؤمنون بالبعث بعد الموت. والإيمان بالبعث عبرت الآية عنه باليقين. واليقين هو أعلى درجات التصديق أو الإيمان.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

لما كانت التقوى هي المفتاح لفهم القرآن بين الله سبحانه صفات المتقين فهي إيمان بالغيب وعمل للصالحات، وعمل الصالحات قسمان أحدهما تزكية النفس ومجاهدتها وأعظم عمل تتزكى به النفس إقامة الصلاة، وإقامتها لا تكون إلا بالخشوع، قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي خاشعين. والثاني الإحسان إلى الخلق ببذل المال لهم والشفقة عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

هذه الآية عجيبة فالقرآن خطاب للناس جميعا وبه يهتدون، وفيهم المؤمنون وفيهم الكافرون، قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ١٠٥

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ومع ذلك يقول هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فلا فائدة من إنذارهم بل إن الإنذار وعدمه سيان. وهذا يجعلنا نستنتج أن الكفر المقصود هنا هو كفر خاص وليس كل كفر، فهناك كفر سببه الجهل والغفلة، فهؤلاء حري بهم إذا جاءهم النذير أن يؤمنوا، وهناك كفر سببه الجحود والإعراض بعد معرفة الحق، فهؤلاء أُغلقت عندهم منافذ إدراك الحق ولهذا ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾، وارجع إلى ما ذكرته من قبل عن معنى الهداية ليتضح لك المراد.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

هذه الآية تبين من هم الكفار الذين لا ينتفعون بنذارة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم ليسوا عموم الكفار وإلا كان إرسال الرسل عبثا يتنزه الله عنه. إنهم أناس استحقوا أن يختم الله على قلوبهم ويضع على سمعهم وأبصارهم غشاوة تمنعهم من الهدى، وهذا لا يكون إلا بإجرام عظيم منهم، وأعظم الإجرام جحد الحق والإعراضُ عنه بعد معرفته، والكبرُ عن قبوله.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

تأمل قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ فهي صيغة مفاعلة تقتضي تكرار الفعل كي تتم الخديعة، فهم يكررون الفعل ولكنهم يشعرون بفشلهم فيكررونه مرة أخرى لئلا ينكشفوا، وقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ يقتضي وقوع الخديعة لأنفسهم من

أول مرة. ومن خديعة أنفسهم أنهم لا يكتشفون ما هم عليه من خطأ وضلال فيرجعون عنه، بل هم في ضلالهم يعمهون.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾:

ما المرض الذي في قلوبهم جعلهم يستحقون هذا الطرد والإبعاد والعذاب الأليم؟

لعل أول المرض الكذب؛ فبه عَلَّل اللهُ استحقاقهم العذاب فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. ويستفاد من الآية أن المانع لهم من الإيمان ليس شبهة، وإنما شهوة استوطنت قلوبهم وهيمنت عليها فمنعتهم من الإيمان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾:

ثم يخبر عن الكفار أنه يقال لهم لا تفسدوا في الأرض، وهم في الحقيقة مفسدون وأي فساد أعظم من عبادة الأوثان ونشرها وحمايتها!

الذي يبدو -والله أعلم- أن الخطاب للمنافقين بالنهي عن الإفساد في الأرض جاء من جماعة المسلمين، لأن أفعال المنافقين لا تتفق مع أعمال المسلمين، ولهذا نهوهم وقالوا لهم: إن عملكم إفساد، وسبب النهي أنهم يشتركون في الظاهر في مرجعية إيمانية واحدة فالمنافقون يعلنون ظاهرا أنهم مؤمنون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

المنافقون قَسَّموا المجتمع إلى عقلاء وسفهاء، أو راشدين وسفهاء، وهذا من

أسباب ضلالهم. والمجتمعات تخضع عادة لكثير من التقسيمات: عرقية أو اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو قبلية، وربما كان هذا التقسيم مانعا لأبناء المجتمع من التفكير السليم كما قال تعالى عنهم: ﴿لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾، وكما قال: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، وقال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. فهذا التقسيم الظالم للمجتمع منعهم من إدراك الهدى.

وتقسيم المجتمع أحيانا لأداء وظيفة في المجتمع كجماعة المعلمين أو الحدادين أو التجار، وأحيانا يكون للتعارف كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، والخطأ الذي يقع فيه الكثير هو إلحاق وصف لتنقص وتحقير طبقة أو فئة اجتماعية. فهم هنا وصفوا المؤمنين بالسفهاء، والأراذل، والذكي لا يتابع من هذه صفته، ولذلك ضلوا.

في الآية مسألة أخرى، وهي الأصل في نفاق هؤلاء أنه غير ظاهر، فهم يعلنون إيمانهم ويخفون نفاقا، ومع ذلك أخبر الله هنا أن هناك جدلا بين المنافقين وبين من يعرفون حقيقتهم من المؤمنين يجادلونهم في كفرهم، فيرد عليهم المنافقون بحجة لا علاقة لها بمعايير الحق والباطل، وإنما لها علاقة بزخرف الحياة الدنيا واتباع الشهوات؛ يقولون إنما أسلم السفهاء بادي الرأي. وأما عموم المسلمين فلا يعلمون عن نفاق هؤلاء؛ ولهذا كان المنافقون إذا لقوا هؤلاء أعلنوا إيمانهم، وربما مدحوا الإسلام وذكروا بالخير من هو مشهور من العباد والعلماء تلبيسا على العامة.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾:

الجزاء من جنس العمل، فهؤلاء استهزأوا بعباد الله وخادعوهم فاستهزأ الله بهم

ومدهم في طغيانهم، يضربون في التيه بغير هداية من الله سبحانه. وتصيبهم الفواقر وتنزل بهم المصائب جزاء أعمالهم فلا يتعظون، وينتقلون من ضلال إلى ضلال.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾:

هؤلاء لا يوجد في قلوبهم نور فلما انطفأ النور الذي حولهم تاهوا عن الطريق، والآية التي تلتها بينت طبيعة فقدان النور، فهم لا يستفيدون من حواسهم في معرفة الحق فهم صم عن سماعه، وبكم عن النطق به، وعمي عن إبصاره.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

هذا أول نداء في القرآن وهو نداء عام للبشرية كلها، وهو دعوة لعبادة الله، ويلاحظ هنا أمور:

- ✓ العبادة قضية عامة.
- ✓ هذه الدعوة معللة: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.
- ✓ بيان فائدة الدعوة للمدعو: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وهذا النداء هو إجابة على أحد الأسئلة الوجودية الكبرى وهو لماذا، أو لأي شيء خلقنا؟

تذكَّر أن الله ذكر المتقين في أول السورة وقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. ثم قال هنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

في هذه الآية معيار لمن يستحق العبادة ولا ينبغي أن يعبد غيره، أنه الذي خلق ورزق. والخلق والرزق أمور حسية الكل يدركها، والكل في حاجة إليها، ولهذا كثيرا ما يردان في القرآن للدلالة على وجود الله.

وهذه الآية إجابة على سؤال آخر من الأسئلة الوجودية الكبرى وهو السؤال: من أين جاء هذا الكون أو من أوجده؟

وفي الآية دليل على وجود الله سبحانه، وهو دليل ملاءمة الكون للمخلوقات، فليست الأرض الملائمة للمخلوقات بل السماء أيضا والماء النازل من السماء.

نظرية التطور تفترض التكيف في المخلوقات مع الطبيعة بسبب التفاعل والحاجات التي عند المخلوق، فيكيف نفسه، ويغير من سلوكه؛ وبناء على ذلك يتغير خلقه ليوائم الطبيعة، وهذا ممكن. ولكن الملاءمة التي في الآية مختلفة عن هذا تماما فهي ليست نتيجة التفاعل لأن تفاعل المخلوقات يؤثر على المخلوقات نفسها فتغير من سلوكها وطبيعتها وليس على الأرض أو الكون.

إن الملاءمة نتيجة لإرادة سابقة على الخلق تعلم أن مخلوقات معينة سوف تستوطن الأرض ولهذا جعلتها ممهدة لهم، وجعلت السماء وما ينزل منها من ماء ملائما لهم.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

هنا المعجزة وإثبات صدق الرسالة، في مطلع السورة نفى الريب عن الكتاب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ولكن مع ذلك قد يوجد ريب في نفس المخاطب

بسبب أوهام وشكوك سبقت إلى ذهنه ولم يتحقق منها فما السبيل إلى إزالتها؟ يقول الله سبحانه مخاطبا هؤلاء الشاكين الذين يزعمون أن القرآن ليس من الله وإنما هو من عند بشر: عليكم أن تأتوا بسورة مثله واستعينوا في ذلك بمن شئتم من دون الله.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾:

هذه الآية وما بعدها تضمنتا جزاء من قبل الرسالة وجزاء من رفضها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أعلم مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

هذا خبر وجود الإنسان على ظهر الأرض يتعلمه الإنسان في أول سورة البقرة أول القرآن كي يجيب على الأسئلة الكبرى التي عند الإنسان: من أين جئت ولماذا وإلى أين.

ومما نتعلمه من السورة أن الإنسان مخلوق ليقيم في الأرض، وغايته تحقيق عبادة الله سبحانه ثم ينال جزاءه على القيام بذلك. فالحياة لا معنى لها بدون عبادة الله ولا سبب لوجودها إلا عبادته سبحانه. وفي سورة هود ورد أن من غاية وجود الإنسان على الأرض عمارتها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إليه إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾، ومن عمارة الأرض تحقيق عبادة الله بين الناس فيها.

ونستفيد من الآية أن الإنسان خلقه الله ليعيش في الأرض ويعمرها، وأنَّ مُكثَ آدم في الجنة كان مؤقتا لهدف محدد، ثم أهبطه الله منها إلى الأرض. وما قاله بعض العلماء –على جلالة قدرهم– بأننا أسرى في أرض العدو قول لا دليل عليه بل مخالف لما نصت عليه هذه الآية.

ويظهر أن الغرض من دخول آدم وحواء الجنة أول ما خلقهما الله تأهيلهما للعيش في الأرض وتحمل مسؤولية الأمر والنهي.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

قيمة الإنسان ليست شيئا في أصل خلقته فهو مخلوق من تراب ثم من ماء مهين، وإنما هي في ما أضافه الله إليه بعد اكتمال خلقه، والذي أضافه الله إليه هو العلم، وما يتحقق به العلم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، وبالعلم أظهر الله فضله على الملائكة، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أعلم غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرض وَأعلم مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فآدم لم يفضل الملائكة بأصله الطيني وإنما بما علمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾:

ورد في آيات أخرى كيف يُزِلُّ الشيطان بني آدم بالتفصيل:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾:

هبط آدم من الجنة إلى الأرض تائبا، وقَبِلَ الله سبحانه توبته. فلا وجود لما يسمى بالخطيئة الأصلية.

وفي هذه الآية ملحظ مهم وهو أن الله سبحانه تواب رحيم، فهو سبحانه رحيم بعباده يتوب على من تاب منهم. وما يسمى في النصرانية بالخطيئة الأصلية التي يوصم بها أبو البشرية وتلاحق بها ذريته من بعده لا يتفق مع ما وصف الله به نفسه من أنه هو التواب الرحيم سبحانه.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون تكررت في القرآن اثنتي عشرة مرة، والثالثة عشرة وردت في سورة الزمر: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهو المعنى نفسه. ولعل هذه الآية تشير إلى أن أقوى مشاعر الإنسان هو شعور الخوف مما يصيبه في المستقبل، وشعور الحزن على ما فاته في الماضي. وهذان الشعوران عامان في جميع أحوال الإنسان: الاستقامة وضدها والغنى والفقر والصحة والمرض والإيمان والكفر والشباب والشيخوخة، فما من أحد إلا ويقلق على المستقبل ويخاف من مفاجآته، ويتحسر على ما فاته.

ينبغي النظر في القرآن كيف عالج هذا الشعور.

في هذه الآية إشارة إلى أن المُنْجِي من هذا الشعور الغلاب هو اتباع الهدى، والمؤمن يعلم أن المستقبل بيد الله، وأن الماضي بقدر الله.

﴿يَا بَنِى إسرائيل اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾:

هذا أول خطاب لبني إسرائيل، وثاني خطاب في القرآن بعد الخطاب الأول الذي كان عاما للناس جميعهم. وهذا النداء بدأ بقضيتين، الأولى: التذكير بنعم الله عليهم والمطالبة بحقها وهو الشكر، والثانية: الوفاء بالعهد. والإخلال بهاتين القضيتين موجب للعقاب ولهذا قال: ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾.

ويلاحظ أن هاتين القضيتين ليستا خاصتين ببني إسرائيل، بل هما عامتان في كل أمة، فما من أمة إلا وسلف إليها من نعم الله ما يوجب الشكر، وبينها وبين الله عهد الإيمان به وعبادته، لكن لماذا خص بني إسرائيل بالخطاب؟

لعل السبب أنهم الأمة الوحيدة التي كان عندها كتاب من الله وبقية من النبوة وقت نزول القرآن، فأراد الله أن يخبرهم بأن ما أنزل على محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مصدق لما معهم وعليهم اتباعه.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾:

الخشوع في العبادة أصل عظيم للقيام بها والصبر عليها، فعلى العبد أن يتفقد نفسه في مواطن الخشوع، ويجاهدها في التحقق به، والخشوع هو سر أداء العبادات، وهو عاجل ثواب المؤمن فمن خشع في عبادته فقد عجل الله له شيئا من ثوابها، وهو لذة العبادة.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إليه رَاجِعُونَ﴾:

مما يقوي الخشوع في القلب اليقين بلقاء الله سبحانه. والظن هنا ليس المقصود به ضد اليقين، وإنما هو اليقين، وفي القرآن وفي لغة العرب جاء استخدام الظن بمعنى

اليقين وبمعنى الشك: فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي: أيقنوا.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

﴿يَا بَنِي إِسرائيل اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾:

هذا هو النداء الثاني لبني إسرائيل وفيه إشارة إلى أن المسؤولية فردية، وأنه لا يغني أحد عن أحد. ولعل في هذا إشارة إلى بطلان التعصب للقبيلة أو العشيرة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

هنا امتن الله على بني إسرائيل بهلاك عدوهم وهم ينظرون. ورؤية العدو الظالم يهلك فيه شفاء للنفس من أوجاعها وذهاب الغيظ ووحر الصدر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

هذه القضايا الثلاث: الإيمان بالله فهو الخالق المستحق للعبادة، والإيمان باليوم الآخر حيث الجزاء والحساب، وعمل الصالحات في هذه الحياة، من تحققت فيه حري به أن يؤمن بالرسالة الخاتمة ويتبع سبيل الحق.

ومن قام بهذه الأعمال الثلاثة استحق الثواب من الله سبحانه فهو سبحانه كريم عدل لا يظلم الناس شيئا.

وينبغي للدعاة إلى الله أن يُعنوا بهذه القضايا الثلاث في خطابهم لأصحاب الديانات الأخرى.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

يبدو أن الأسئلة والاعتراضات من بني إسرائيل على موسى في ذبح البقرة بقصد تعطيل حكم الله والتكتم على القاتل.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

ما سبق من الآيات هو بيان تفصيلي بالمثال عن طبيعة بني إسرائيل، ثم التفت الخطاب إلى المسلمين، فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ وفيهم طائفة تسمع كلام الله ثم تحرفه بعد ما سمعته وفهمته مصرة على عملها عالمة به. وتأمل هنا العدل في القرآن فلم يطلق الوصف فيشمل كُلَّ بني إسرائيل بالتحريف، وإنما قال فريق منهم، وتأمل مرة أخرى أن هذا الفريق مع أنه قليل منهم إلا أنه مؤثر فيهم بحيث يصرف الأكثرية عن الإيمان برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسبب أن له سلطة ويمتلك شيئا من عناصر القوة، فهذا الفريق ورد في آيات أخرى أنهم الأحبار والرهبان، وبنو إسرائيل اتخذوهم أربابا من دون الله.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

تناولت الآيات طبيعة بني إسرائيل فذكرت منها:

- الكذب
- والجهل بالكتاب
- تحريف الكتاب
- وبيع الدين بثمن بخس من الدنيا

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾:

يبدو أنها ظاهرة عند البشر حينما تغيب عنهم المعلومات في الموضوع الذي يبحثونه يصبحون كالأميين، ويكون تحليلهم للظاهرة ودراستها صورة من أمانيهم، ويعتمد على الظنون والأوهام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

حادثة العجل في بني إسرائيل غريبة، ولها أثر في النفسية الإسرائيلية.

وهذه الحادثة كرر الله ذكرها في القرآن سبع مرات وذكر أن قلوبهم أُشربت العجل، أي أن عبادته هيمنت على فكرهم ومشاعرهم، وأحبته قلوبهم حبا شديدا. وذكر الله أنها مما حال بين بني إسرائيل والاستجابة للحق.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بذل وسعه في تخليصهم منه فأنكر عليهم وحرق العجل ونسفه في البحر نسفا شديدا، ومع ذلك بقي أثره في نفوسهم.

إذن بعض المعاصي إذا تعلق بها القلب يصعب أن يتخلص منها حتى لو تاب صاحبها يبقى يحن إليها، وتنازعه نفسه ليعود إليها، ولا ينجي من ذلك إلا المجاهدة الشديدة المستمرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

هذا النداء الثالث في القرآن:

الأول: للناس وهو أمر بعبادة الله، **والثاني**: لبني إسرائيل وهو تذكير بنعم الله عليهم، وهذا هو **الثالث**: وهو خاص بالذين آمنوا:

وهذا النداء يوجه المؤمنين في ثلاث قضايا:

١. الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢. تجنب القول المشكل الذي قد يفهم على غير وجهه.

٣. التَّميُّز وعدم التشبه بالمنافقين.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

وردت أهل الكتاب في سورة البقرة مرتين، هذه الآية وآية (١٠٩) وهي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفيما سوى هذين الموضعين كان التعبير ببني إسرائيل وتكرر هذا ست مرات، ويبدو والله أعلم أنه حينما يتحدث عن قضايا تاريخية وعن جماعة محددة يستخدم بني إسرائيل، وحينما يتحدث عن توجه ديني يستخدم أهل الكتاب.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

تأمل الربط بين قدرة الله وملكه المطلق وبين النسخ، فمن مظاهر قدرة الله أن ينسخ بعض ما أنزله على رسوله وشرعه لعباده بمثله أو خير منه.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

في هذه الآية وفي الآية التي قبلها: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، ذكر لطبيعة علاقة أهل الكتاب مع المؤمنين وهي أنها علاقة نابعة من الحسد، فهم يحسدون المؤمنين على ما عندهم من الخير ولا يريدون أن ينزل عليهم من خير من الله. وعلاقة الحسد هذه لا زالت قائمة إلى يومنا هذا.

وكتابات كثير من الغربيين عامة والمستشرقين خاصة عن الإسلام والمسلمين يظهر فيها التجني الذي سببه الحسد.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

الذين لا يعلمون هم مشركو العرب ومن تابعهم في ذلك، فكل صاحب دين ضال يُضَلِّل من سواه ولو كان صاحب الدين الحق.

﴿يَا بَنِى إِسْرَاِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

هذا نداء آخر لبني إسرائيل وهو تكرار للمعنى في النداء السابق في الآية رقم (٤٠): التذكير بالنعمة والتفضيل على العالمين.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

لماذا وصف المعترضين على تغيير القبلة بالسفهاء؟

بين ذلك بأن المشرق والمغرب له سبحانه، وهو يأمر عباده بما شاء ويوجههم حيث أراد فلا معنى لاعتراضهم عليه سبحانه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾:

تغيير القبلة له علاقة بتميز الأمة ووسطيتها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾:

هذا النداء الثاني للمؤمنين في القرآن، وهو يرشدهم إلى أن الإيمان يحتاج إلى الصبر والصلاة.

تأمل مكانة الصلاة في القيام بأمر الدين وأنها معينة في ذلك، فعلى العبد أن يستعين بأدائها في القيام بما فرضه الله عليه.

وتأمل أيضا كيف قدم الصبر على الصلاة.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾:

هذه الآية والآيات التي قبلها من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ..﴾ تتحدث عما يقع على العبد من تكاليف العبادات ومصائب الدنيا ولأوائها، وكذلك القتل في سبيل الله، وجميع هذه أثقال وتكاليف قد ينوء بها العبد فلا بد له من الصبر، والصبر يحتاج إلى ثلاثة أمور:

١. إرادة الصبر، بأن يُصَبِّر العبد نفسه ويقاوم الجزع والقنوط.

٢. الصلاة.

٣. الدعاء والذكر.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرض وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرض لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

هذه بعض مظاهر الطبيعة، وقاصرو الفهم يعبدونها من دون الله، بينما هي آيات دالة عليه سبحانه، وهي بعض مظاهر قوته، وما فيها من قوة فهي من الله فهو سبحانه صاحب القوة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾:

من الناس من يحب الله ويحب معه أندادا كحبه لله، يُشركها معه فيما هو من اختصاصه سبحانه ويظنها تنفع، إن هؤلاء مشركون ضالون.

والذين آمنوا أشد حبا لله لأنهم لم يشركوا معه في محبته أحدا سبحانه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

هذا النداء الثاني للناس كافة، والأول كان دعوة معللة إلى عبادة الله، وهذا النداء دعوة للتحذير من خطوات الشيطان.

وما في الأرض قسمان حلال طيب وحرام خبيث، وأي مفارقة للحلال الطيب هي من خطوات الشيطان. وتأمل التعبير بخطوات فالخطوة قد تكون صغيرة جدا ولكن يكفي أنها خطوة للشيطان وهي تنقل الشخص من الحلال الطيب إلى ضده وهو الحرام الخبيث.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

خطوات الشيطان مضلة في العمل وفي النظر، وهي تسلك في العمل أحد سبيلين، سبيل السوء وهو مخالفة الأمر والنهي بارتكاب ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر به، وكل مخالف لأمر الله ونهيه فهو مخالف للفطرة أيضا، وسبيل الفحشاء وهو الزيادة على الأمر.

أما طريق خطوات الشيطان في النظر فهو القول على الله بلا علم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾:

هذه الآية وما بعدها تفسر سبيل الحلال الطيب وضده في المآكل.

وهي تأمر بالأكل من طيبات رزق الله لأن المخاطبين مؤمنون، أما الآية التي قبلها فتقول: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ ولم تذكر أنه من الله ولعل ذلك لأن الخطاب للناس جميعا، وفيهم من لا يؤمن بالله.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

هذه الآية تفسر خطوات الشيطان في جانب المآكل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

وهذه الآية تفسر خطوات الشيطان في النظر أو في العلم وهي:

١. كتمان ما أنزل الله من الحق.

٢. وإيثار الدنيا عليه.

فأصل خطوات الشيطان في النظر هو تقديم الدنيا على الآخرة، أو كما أخبر الله عنهم: يشترون بدينهم ثمنا قليلا. الانحراف هنا ليس في أصول النظر وأدواته، ولكنه في النية ومقاصد الناظر، فهو شهوات وليس شبهات.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾:

الإسلام أو البر ليس مجرد مظهر أو هيئة خارجية، وإنما هو حياة ونظام يعيشه المسلم ويهيمن على حياته ومشاعره ويدفعه للتفاعل الإيجابي مع إخوانه المسلمين، فيساعد الضعفاء والمحتاجين، وهو نظام له سطوته وتأثيره في الرخاء والشدة، وفي الحرب والسلم، وفي السر والعلن.

والإسلام ليس مجرد علاقات اجتماعية حسنة وإحسان إلى الآخرين، بل هو بالإضافة إلى ذلك عبادة لله وانطراح بين يديه سبحانه، فالذين يقولون الإسلام هو الأخلاق فقط ويقصرون في العبادات والشعائر مخطئون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

هذا هو النداء الثالث للمؤمنين وهو نداء معلل ومبين فيه ثمرة الاستجابة له.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

عرض الصيام بطريقة جميلة محببة للنفوس: فهو فرض ولكنه أيام معدودات، أي: أيام قليلة. ومن لا يستطيع أداءه لسفر أو مرض فيمكن أن يصوم بدل هذه الأيام أياما أخرى، ومن يطيق الصيام ولكنه يتضرر به كالشيخ الكبير أو المريض الذي لا يرجى برؤه أو المرضع التي يتضرر ولدها فتدفع فدية طعام عن كل يوم.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾:

ما أجمل موقع الآية، جاءت بعد الأمر بالصيام وكأن فيها إشارة إلى أن دعاء الصائم لا يرد، وإجابة الله دعاء الصائم أكدته السنة كحديث: «**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ** عَزَّوَجَلَّ: **وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»[1].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

الرفث: كناية عن الجماع، وقال الزجاج: «الرَّفَثُ: كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا يُرِيدُ الرَّجُلَ مِنَ امْرَأَتِهِ»[2].

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١٧٥٢)، و«سنن الترمذي» (٣٥٩٨).

(٢) ينظر: «فتح القدير» للشوكاني (١/ ٢١٤).

تختانون: تخونون، ومعناها واحد[١].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿تُدْلُوا﴾: تخاصموا.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾:

الذين يقاتلونكم أي المستعدون لقتالكم وهم الرجال المكلفون، والنهي عن الاعتداء يشمل كل أنواع الاعتداء ومنه مقاتلة الشيوخ والأطفال والنساء، ومنه التعدي على الأرض والزروع والثمار والمباني ومن لا يقاتل من النساء والأطفال.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾:

هنا بين المقصود بالفتنة، هي ألا يكون الدين لله، وأن يُصرَف الناس عن دينهم. ووضع قاعدة في القتال فإعلان الحرب لا يكون إلا على الظالمين، ومن حارب المسلمين فهو ظالم فنقاتله دفاعا عن أنفسنا، وكل من صد عن دين الله ومنع الدعوة فهو ظالم فنقاتله دفاعا عن الدعوة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾:

الآية تصف حالة غريبة لبعض من يعبد الله فهو يستعين به سبحانه في أمر الدنيا ولكنه لا يطلب الآخرة منه ولا يتجه إليها في دعائه.

---

(١) المصدر السابق.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾:

يقول السعدي: وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلما أو كافرا، أو فاسقا، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلا على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين[١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾:

هذه الآية والآيات الثلاث التي بعدها تتحدث عن صنفين من الناس: صنف مجادل مراوغ مستكبر ينشر الفساد في الأرض يختلف مظهره عن مخبره، وصنف شرى نفسه ابتغاء مرضات الله.

وبعد هذا البيان للصنفين جاء نداءٌ للمؤمنين بالدخول في السلم كافة. والصنف الأول المراوغ يتخذ كل وسائل الاقناع القولية لإقناعك بصدقه وإرادته الخير، ثم هو يقسم على ذلك ويشهد الله على ما في قلبه من الخير والنية الصادقة، ومع ذلك فهو من ألد المخاصمين، وجمال قوله هو نوع من فن الجدل الذي يجيده، وإلا فهو مفسد في الأرض يسعى جهده في إهلاك الحرث والنسل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

هذا النداء الرابع للمؤمنين، وهو يضع قاعدة عامة في السلوك والاختيارات الاجتماعية وهي الدخول في السلم، ويقابل السلم خطوات الشيطان.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٩٣).

والسلم إما أن يكون جميع شرائع الإسلام فالآية أمر لهم بالتزامها وألا يكونوا كأهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وهذا اختيار طائفة من المفسرين، وإما أن يكون عدم الحرب والنزاع، وقد أشار إلى هذا المعنى بعض المفسرين كالطاهر بن عاشور، فيكون معناه المسالمة وعدم التعدي على حقوق الآخرين وإقامة العدل، وهذا المعنى مُتضمَّن في الأول. يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ السِّلْمِ هُنَا الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ وَيُرَادُ السِّلْمُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ يَأْمُرُهُمُ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنِ اتَّصَفُوا بِالْإِيمَانِ بِأَلَّا يَكُونَ بَعْضُهُمْ حَرْبًا لِبَعْضٍ كَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجاهلية، وَبِتَنَاسِي مَا كَانَ بَيْنَ قَبَائِلِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَاتِ»(١).

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

مع سعي العبد في الدخول في السلم فإنه قد يزل ويخطئ فلا يصرفكم ذلك عن غايتكم وهي الدخول في السلم.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

سبق في النداء لبني إسرائيل أن ذكر الله أنه أنعم عليهم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وفي هذه الآية وعيد شديد لمن يبدل نعمة الله.

ويستفاد من هذه الآية أن الآيات البينات الدالة على وحدانيته وصدق رسله من نعم الله بل هي أعظم نعمه سبحانه.

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٧٨).

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

هذه الآية توضح شيئا من العلاقة بين المؤمنين والذين كفروا، فالذين كفروا يسخرون من الذين آمنوا، وسبب السخرية أن أولئك توسعوا في الحياة الدنيا بوجوه يأباها المؤمنون ولا تقرها الشريعة، ولهذا يسخرون منهم لامتناع المؤمنين عما خاض فيه الكافرون.

وأيضا فهؤلاء الكافرون سُلِبَ منهم استقباح القبيح واستنكار المنكر وزُين لهم سيئ فعلهم فهم يندفعون في الحياة الدنيا غير مبالين بما ينتظرهم من عقاب الله.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

الأصل في الناس أنهم أمة واحدة هكذا خلقهم الله، ثم حصل التباين بينهم بموقفهم من الهدى الذي أنزله الله إليهم. يقول الله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، الأصل أن الكتاب المنزل يبين للناس الحق فيتبعونه ويعملون بما دل عليه، ولكن لأن المقاصد فاسدة لما بينهم من البغي لم يهتدوا به، فحصل بينهم التنازع في دلالة الكتاب فضلوا ولم يهتدوا بما أنزل الله سبحانه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾:

اللهم لطفك، أي نوع من البأساء والضراء أصابت خير خلق الله وأكثرهم إيمانا به

ومعرفة وهم الرسول والذين آمنوا معه فجعلتهم يستبطئون نصر الله ويقولون «متى هو؟»!

حقا إنها بأساء قاسية، وكلمة ﴿زُلْزِلُوا﴾ في الآية تشرح طبيعتها.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾:

أعلى البر وأعظم النفقة هو ما ينفقه العبد على والديه وأقاربه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

عدم ملائمة أمر لأهواء النفس ومراداتها ليس دليلا على بطلانه، فالنفوس ربما كرهت القتال لما فيه من مظنة الموت أو الإصابة بجراح، وربما استثقلت الصيام في يوم حار، أو الاستيقاظ لصلاة الليل، أو النفقة من مال: صدقة أو زكاة. ومحبة عمل الخير وإلف النفس له لا يكون إلا بعد مجاهدة، ومن جاهد نفسه هداه الله إلى الصراط المستقيم.

وتفيد الآية أن مقاتلة الكفار لا تتناقض مع السلم، بل هي عين السلم لما فيها من ردع الظلم وإزالة أسبابه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

هنا بيان لمعنى الفتنة، فهي ردة عن الدين وهي أكبر من القتل.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾:

في هذه الآية درس للمربين ومن يجادلون أصحاب الشبهات ولأهل الفتيا: أن إقرارهم بالحق الذي انطوت عليه الشبهة ولو كان قليلا أدعى لقبول الحق الذي معهم والتسليم بالباطل الذي كشفوه. هنا بعض العرب تعلقت نفوسهم بالخمر والميسر لما يجدونه من منفعة اجتماعية عامة حيث يمنح الفائز في الميسر بعض ما ناله الفقراء وعامة الناس، أو لما يجدونه من ميل نفسي لهما، ولهذا ذكر الله ما في الخمر والميسر من إثم وضرر وما فيهما من منفعة، ثم قال: إن الإثم فيهما أعظم من النفع، والنفوس مجبولة على تجنب الضرر والإثم الأكبر، والتضحية بالمنفعة القليلة في جانبه. وهذه الإجابة تمهيدٌ لتحريم الخمر، ولفت للأذهان إلى ما فيها وفي الميسر من الضرر والإثم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾:

هذا النداء الخامس للمؤمنين، وهو أمر بالنفقة مما رزقهم الله، وبين في الآيات التي بعدها ما ينبغي إنفاقه في سبيل الله.

تناولت الآيات أمورا ثلاثة:

الأول: يجب أن تسلم النفقة من المن والأذى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

الثاني: أن النفقة ينبغي أن تكون من طيب المال وليس من رديئه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

الثالث: على العبد أن ينتبه لمكر الشيطان عندما يريد أن يتصدق فهو يخوف العبد من الفقر، فيكف يده عن الصدقة والنفقة الواجبة، والله سبحانه يعد عباده مغفرة منه وفضلا. قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

ما ورد هنا مثال على الخروج من الظلمات إلى النور الذي ورد ذكره في الآية التي قبلها: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ولكن النمرود رفض الدلالة فبقي في الظلمات.

والآية تضمنت أربعة أنواع من الأدلة، وهذه الأدلة كافية بإذن الله في الخروج من الظلمات، وهي تعمل مجتمعة، والخروج من الظلمات لا بد له من دلالة وبيان، ولا بد له من قبول واقتناع بالبيان وإلا لم يُنجِ من الظلمات: وأصول الأدلة الأربعة هي:

١. دليل الوحي الذي يهدي.

٢. ودليل العقل الذي يقتنع.

٣. ودليل الحس الذي يشاهد.

٤. ودليل القلب الذي يقبل.

والذي حاجّ إبراهيم تحقق له طريق الوحي ولكنه رد هدايته، وتحقق له طريق العقل ولكنه كابر وأعرض، ولم يقبل قلبه فلم يؤمن. ولما أعرض عن العقل ألزمه إبراهيم بدليل الحس فبهت، ولكن قلبه رفض الدلالة.

وفي هذه الآية دليل على أن أقوى الأدلة دليل الحس، فما يحسه الشخص أو يلاحظه يمتنع عليه إنكاره، ولكن لا تتحقق له الهداية إلا إذا قبل القلب.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾:

هنا دليل الحس.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

وهنا سبيل آخر لحفظ الإيمان والبقاء في النور والتغلب على الشكوك، وهو سبيل التطبيق أو الممارسة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾:

هذا نداء مرتبط بالنداء الذي قبله في الآية رقم (٢٥٤)، ففيه توجيه إلى كيفية الإنفاق في سبيل الله، فهو يجب أن يكون خالصا من المن والأذى ومن الرياء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

وهذا النداء أيضا مرتبط بالندائين اللذين قبله، فهو يوجه إلى أن النفقة في سبيل الله تكون من طيب الكسب وليس رديئه.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

هذا أحد مداخل الشيطان لدفع الناس لاتباع خطواته، فبسبب خوف الفقر يقع الناس في الفحشاء، فيتجاوزون الحد المشروع في الادخار فيمنعون الزكاة، وفي الكسب فيقعون في الربا أو الغش.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾:

هذه الآية جاءت بعد التحذير من مداخل الشيطان، فيستفاد منها أن أولئك الذين اجتنبوا مداخله ولم يتبعوا خطواته قد آتاهم الله الحكمة، وأنهم من أولي الألباب.

والحكمة هي بصيرة يدركها القلب ويهتدي إليها العقل، وتفيد الآية أن أولئك الباذلين أموالهم في سبيل الله أقرب إلى الحكمة من غيرهم، وقلوبهم أصلح من قلوب غيرهم.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

الصدقة إما معلنة ظاهرة أو خفية، والمعلنة يستفيد منها المجتمع فيقتدي بالمتصدقِ غيرُه، لكن صدقة السر خير للقلب.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾:

أشارت الآية إلى أمرين:

الأول: أن النفقة خير للمنفق، فهو المستفيد الأول من نفقته قبل من أنفق عليهم.

والثاني: أن الله يخلف على المنفق ما أنفقه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾:

قال الشوكاني: «﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ في الآية قبلها، أو بمحذوف تقديره اجعلوا ذلك للفقراء»[(١)].

(١) ينظر: «فتح القدير» (١/ ٣٣٦).

وأحصروا معناها حبسوا بسبب الهجرة أو جراح القتال فأصبحوا زمنى، أو أرصدوا أي انشغلوا بالقتال عن الكسب.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

هذا تطمين للمنفقين فهم في رعاية الله، لهم أجرهم عند الله سبحانه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

هذا نداء للمؤمنين وهو في المال، فيحذر الله من الربا ويأمر بإيقاف التعامل بالمعاملات الربوية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

هذا آخر نداء في سورة البقرة وهو خاص بالمؤمنين، وهو توجيه تفصيلي في قضايا مالية فيأمرهم بكتابة الدين وتوثيق البيع والشراء.

وفي قوله تعالى: ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، فلفظ أدنى: وردت ثلاث عشرة مرة في القرآن ولها عدة معان فمنها: كما في الآية: أَحْرى ألا ترتابوا، ومنها الأقرب، والأقل، والدون.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

هنا قاعدة عامة في جميع التكليفات الشرعية، وهي قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فلا تكليف في الشريعة بما يتجاوز الوسع أو قدرة الإنسان.

سورة آل عمران

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾:

في مطلع السورة حديث عن قصة الوحي، فهذا الكتاب أنزله الله كما أنزل الكتب السابقة التوراة والإنجيل، وهذه الكتب التوراة والإنجيل والفرقان يصدق بعضها بعضا.

في سورة البقرة نَفَى الريب عن القرآن: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وتحدىٰ البشر أن يأتوا بمثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وفي سورة آل عمران عَرَّف بالقرآن وسماه فرقانا، وذكر أن الذي أنزله هو من أنزل الكتب السابقة، فمن آمن بالكتب السابقة عليه أن يؤمن بهذا الكتاب، وذكر أن من أدلة صدق القرآن أنه مصدق لما سبقه من الكتب فلا يناقضها، ثم بين طريق الصواب للتعامل مع آياته، وهو الإيمان بما أنزل الله وحمل المتشابه على المحكم.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾:

هذه الآية تضع للعقل البشري حدودا، وللعلم البشري والمعرفة البشرية حدودا كذلك. ومن الاستخدام السيئ للعقل والعلم أن يظن الإنسان أنه يستطيع معرفة كل شيء، ويستخدم عقله في كل أمر، كمسائل الغيب.

وما أنزله الله سبحانه فمنه ما هو ميسر الفهم ومنه متشابه يعجز العقل عن الإحاطة بمعناه، والواجب الإيمان به كله، فلا يستخدم المتشابه للطعن في المحكم أو الشغب على معانيه، والواجب على العبد أن يحمل المتشابه على المحكم.

والمتشابه أنواع، منه الذي استأثر الله بعلمه، ومنه ما قصر علم البشرية في عصر عن الإحاطة بمعناه، ومنه ما يتفاوت الناس في فهمه فيكون متشابها عند بعضهم بسبب قصور علمهم ومحكما عند آخرين. والواجب على هؤلاء سؤال أهل العلم. وتتبع المتشابه دليل على زيغ القلب -والعياذ بالله-، وهؤلاء إذا تتبعوا المتشابه انتهى بهم إلى الفتنة.

ومن يتركون المحكم من الآيات وينشغلون بالمتشابه لا يقرؤون القرآن للعمل بما ورد فيه وإنما للمغالطة فيه، وجميع الآيات التي ورد العمل بما فيها هي من المحكم ولا يتصور أن تكون من المتشابه.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾:

من علامات زيغ القلب تتبع المتشابه وضرب آيات القرآن بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾:

حبُّ الجمال والمال فطرة في الإنسان، وكذلك ميل الناس إلى ما يشتهونه، وبغير الشهوات لا يمكن أن تقوم الحياة ولا تنشأ المجتمعات ولا تتأسس الحضارات؛ ولهذا زين الله الشهوات للناس، شهوة النساء وشهوة المال وشهوة الولد وشهوة الغلبة والتفوق وشهوة المعرفة ... ومعظم هذه الشهوات هي متاع الحياة الدنيا فهي لا تقوم إلا بها. ووصفها بالشهوات لا يقتضي ذمها وإنما هذا تقريرُ واقعٍ، فما ذكر منها تشتهيه النفوس، قال الله عن المال منبها إلى أهميته في حياة الناس: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾، والمال هو بعض ما ذكر في آية آل عمران.

والشهوات تحتاج إلى ضبط كي تؤدي وظيفتها في بقاء الحياة، وليس السبيل إلى ضبطها إلغاؤها ولا معاندتها، وفي هذا قاعدتان عظيمتان، الأولى عدم الإسراف وعدم التقتير، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.

والثانية أكل الحلال، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

والمتاع ما ينتفع به ويتبلغ به إلى أمد، ومتاع الحياة الدنيا ما يتبلغ به مدة البقاء فيها، والحياة لا تكون من غير متاع.

وذكر المتاع في قوله: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ليس القصد منه الذم، ففي الحديث: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»(١). وهذا ليس ذما للمرأة وإنما تنبيه إلى أنها من خير ما يتبلغ به في هذه الحياة.

والإخبار بأن ما ذكر في الآية متاع فيه التنبيه إلى أنه قصير الأمد متغير كطبيعة الحياة الدنيا، ولفت الذهن إلى المتاع الحقيقي وهو ما عند الله في الجنة، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

ثم أكد المعنى في الآية التي بعدها فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

ينبغي أن يعلم هنا أن المحبة والاتباع، لا يغني أحدهما عن الآخر، وقد توجد المحبة ويضعف الاتباع جهلا، وقد يوجد الاتباع وتضعف المحبة، ودليل هذا حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»(٢).

---

(١) «صحيح مسلم» (١٤٦٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٦٣٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

هذه الآيات تتحدث عن مريم وعائلتها: آل عمران، وعن ولادة مريم ونشأتها، فهي كريمة مطهرة من عائلة مصطفاة اصطفاها الله سبحانه، كما اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم، فهي بعيدة عن السوء، وهذا تكريم لها ولابنها عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾:

مريم وضعت باسم الله، ونشأت في حفظ الله، مصونة من الشيطان هي وذريتها، والله سبحانه تقبلها وجعلها في كفالة نبي، وذِكرُ هذا تكريمٌ لها، وبيانٌ لطهرها عَلَيْهَا السَّلَامُ.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾:

في هذه الآية استجابة الله لدعاء امرأة عمران أم مريم، فهي دعت الله أن يتقبل منها حملها وأن يكون خادما في بيته:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، كما دعت الله أن يحفظ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وهذه الآية تؤكد استجابة الله لهذا الدعاء فتخبر الملائكة أن الله اصطفى مريم وطهرها وفضلها على نساء زمانها.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

كانت مريم وكذلك زكريا عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ يفكران من خلال عالم الأسباب، ففي عالم الأسباب كل حادث له مسبب من طبيعته وإلا فلن نحصل على النتيجة، فأخبرهم الله سبحانه أن الأمر بالنسبة له خلق، فهو يخلق بالأسباب وبغير الأسباب، وهو سبحانه يخلق الأسباب ونتائجها فلا حدود لقدرته، ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ مجيبا استفسار مريم كذلك الله يخلق ما يشاء.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾:

الجدل بعد قيام الأدلة ووضوح الحجة إضاعة للوقت وربما يحتاج الداعية أن يحسم أمره بالمباهلة.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾:

لم يرد في آل عمران نداء لبني إسرائيل وورد فيها ستة نداءات موجهة لأهل الكتاب.

يحسن في الجدل مع المخالف البدء بالمشتركات في الأصول، توحيد الله هو أصل الديانة وهو ما بعث الله به رسله، وهو ما تضمنته أصولهم المنزلة، ففي التوراة والإنجيل -الذين بين أيدي اليهود والنصارى- الأمر بتوحيد الله ظاهر، ولكنهم حرفوا ذلك وأشركوا وقالوا: عيسى ابن الله. واتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

إدراك التتابع الزماني والسياق التاريخي من العقل.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منزلة عالية في جميع الاديان فكلها تنتسب إليه، والمشركون كذلك ينتسبون إليه، وفي هذه الآية كشف عن حقيقة دعوته وأنه حنيف مسلم، فهو ليس يهوديا ولا نصرانيا، وهاتان الديانتان اليهودية والنصرانية جاءتا من بعده، فلا يمكن أن ينسب إليهما:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

ما أعظم هذه الآية جاءت نصرا وتأييدا للمؤمنين على أهل الكتاب والمشركين لما تنازعوا في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فانشرحت لها صدور المؤمنين وابتهجت قلوبهم.

تأمل كيف أبطل الله دعوى أهل الكتاب بأن إبراهيم منهم، قبل أن يصدر الحكم بأن الأولى بإبراهيم هو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه، فهو أولا أبطل الدعوى ببيان تناقضها مع التاريخ، وهيأ الذهن للحكم ثم أصدر الحكم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

المقصود بأهل الكتاب يختلف حسب السياق، فأحيانا يراد به اليهود، وأحيانا النصارى، وفي حالة ثالثة يراد به كلاهما معا؛ اليهود والنصارى، وفي هذه الآية يراد به اليهود فقط وليس النصارى، بدليل قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، وهذا هو اعتقاد اليهود.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

هذا ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم وأتباع الأنبياء الصادقين: يجب أن تظهر آثار دعوتهم عليهم.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

عدد الله الأنبياء والرسل ثم قال ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فيفيد هذا أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء، كما يفيد أن دعوة الرسل واحدة.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾:

أعمال يكثر ذكرها في القرآن ويأمر الله عباده بها: مع الناس النفقة ومع الله سبحانه ذكره ودعاؤه والصلاة.

تذكر الآية العلاقة بين تزكية النفس وبين الإيثار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

مما يستطيل به أهل الكتاب على العرب أنهم أهل كتاب، فعندهم زيادة علم ليس عند غيرهم، وبسبب هذا ربما سألهم بعض المسلمين فحذرهم الله من ذلك، وقال إنهم ربما ردوكم كافرين فاحذروا، ثم بين فضلهم على أهل الكتاب فقال إنكم لستم بحاجة إلى ما عندهم من العلم، فآيات الله تتلى عليكم ورسول الله بين أظهركم.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾:

تفيد الآية أن أهل الكتاب لو قاتلوا المسلمين فلن ينصرهم الله نصراً نهائياً حاسماً.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

هذه صفات لأناس من أهل الكتاب يختلفون عمن انحرفوا منهم:

١. يؤمنون بالله واليوم الآخر، فهم يتعبدون لله ويعلمون أنهم محاسبون.

٢. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومن أعظم المعروف العدل، ومن أعظم المنكر الظلم.

٣. يسارعون في عمل الخيرات وتأييدها.

ومن اتصف بهذه الصفات الثلاث من أي أمة كان فهو من الصالحين يرجى خيره وإسلامه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾:

الاعتزاز بالمال والولد والعشيرة من أعظم ما يكون عند الإنسان عادة، ولهذا بين الله هنا أنها لا تنفع الناس ولا تحميهم منه سبحانه.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾:

الألم في الدنيا يصيب المؤمن والكافر ولكن يتفاوتون في الصورة الذهنية للألم عند كل منهما، فالمؤمن يرجو بالألم ثواب الله سبحانه فيصبر، والكافر لا يرجو ثواب الله ولا مغفرته فيجزع، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾:

الفشل المشار إليه في الآية هو إرادة الدنيا والطمع في متاعها، أما التنازع فهو نزاعهم فيمن يبقى في الجبل وفي أمر الغنائم، والعصيان لعله مفارقة مواقعهم في الجبل وجمع الغنائم، والعلم عند الله.

وبهذا ظهر أن أصل المصيبة الذي نتج عنه النزاع ومعصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو إرادة الدنيا، وهو أساس الهزيمة وسبب الفشل. ولو خلصت نياتهم لما تنازعوا ولما عصوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

أصابهم بأنواع من الغم متتابعة وأعظمها ما شاع بينهم من أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُتِل فهذا أنساهم كل غم، وهوّن عليهم كل مصيبة، ولما علموا بنجاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هانت مصيبة الهزيمة، ومصيبة من قتل منهم، وما أصابهم من جراح، وما فقدوا من مال واغتبطوا بسلامته، فكان الفرح بسلامته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من المصيبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾:

في أُحد وقع الخطأ وظهرت آثاره على الصف المسلم، ولكن ينبغي ألا تمتد إلى النفوس فيفسد ما فيها من الحب ويتهدم المجتمع المسلم، وفي هذه الآية علاج

لهذا الأمر: فالله وصفه بالزلل، والزلل الخطأ الصغير غير المقصود، وعزاه إلى الشيطان، وأخبر عَزَّوَجَلَّ أنه عفا عنهم، فالخطأ إذن دُفِنَ في أُحد ولا ينبغي أن يدخل المدينة مع الصحابة وإنما يدخل معهم العفو الرباني.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

ينهى الله المؤمنين عن التلاوم بعد وقوع القدر، ويقول: لا تشبهوا الذين كفروا في لوم بعضهم بعضا يقولون لإخوانهم: لو لم يخرجوا ولو لم يغزوا لما أصابتهم مصيبة الموت، ويرد عليهم بأن الموت يصيب من خرج غازيا أو تاجرا ومن لم يخرج.

وهذا توجيه في غزوة أُحد وفي غيرها.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾:

في هذا تأليف لقلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صحابته بعد أن عصوه وخالفوه في الشورى فأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم، وفي آية سابقة وصف خطأهم ومعصيتهم الرسول بالزلل وعزاه إلى الشيطان: إنما استزلهم الشيطان، ووصفُه بالزلل تصغيرٌ للخطأ وتقليل لشأنه.

وفي الآية ثناء على الصحابة رضوان الله عليهم، فهم أصحاب نفوس كريمة عزيزة لا تستذل ولا تخضع لجبار مستكبر وإنما لقائد كريم النفس يقابل سموهم بسمو.

ومن عادة الناس أنها تخضع للقايد المستكبر الفظ الذي يذلهم، أما الصحابة فليسوا كذلك لا يقادون بالقوة، ولا يساومون الخسف.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، أي مثلي مصيبة أُحد وذلك يوم بدر، فقتلى بدر من المشركين سبعون والأسرى أيضا سبعون.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

سبحان الله!، هذه الآية تتحدث عن حالة أناس عرفوا الإيمان وصحته، ولكنهم تخلوا عنه وآثروا الكفر ودفعوا ثمن الكفر من إيمانهم، وفي كل مرة يريدون إثبات كفرهم يدفعون من إيمانهم فيبالغون في التخلي عنه وذمه ومحاربته ومحاربة أهله، وهم بهذا يتوهمون أنهم يضرون الدين وما علموا أنهم بعملهم هذا يزداد إثمهم ويعظم جرمهم ويشتد عذابهم المهين في الدنيا والآخرة.

والعذاب المهين في الدنيا خسارة وهزيمة وفقد، وضيق في العيش وضيق في النفس.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

وجود العقبات والابتلاء في طريق الدعوة ضروري لتمييز الخبيث من الطيب: الخبيث من الأشخاص والخبيث من الأعمال، فهو فرصة ليراجع الدعاة عملهم ويصححوا مسيرتهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾:

لا قيمة لحمل الكتاب من غير بيانه، ولا قيمة للبيان من غير تعظيمه.

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾:

هذه الآية وما بعدها من آيات تتحدث عن الجانب المالي في الأسرة: أموال اليتامى ومهور النساء والميراث، وتحدد ضوابطه، وما ينبغي أن يكون فيه.

مما تناولته هذه الآيات الإدارة المالية، فاليتيم لا يعطى ماله بمجرد البلوغ، وإنما إذا آنسنا منه رشدا، أي حسن تصرف أو حسن إدارة في المال.

والحوب: الإثم.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾:

هذه الآية تضع قاعدة في ميراث الرجال والنساء وتبين أن كليهما سواء، فالكل يرث ولا يجوز أن يمنع أحداً جنسُه من الميراث، وكان من عادة العرب حرمان المرأة

من الميراث، وبين الله هنا أن لها نصيبا من الميراث، كما للرجل نصيب من الميراث على حد سواء. أما مقدار ما يرثه كل منهما فيختلف باختلاف درجة القرابة من الميت، فأحيانا يكون الذكر أكثر كما في ميراث الأشقاء والشقيقات وأحيانا تكون الأنثى أكثر كما في ميراث (الأب أو الجد) مع (الأخت أو البنت).

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾:

أصحاب الشهوات ليس لهم حد وليس لهم غاية مستقيمة، بل هم أصحاب ميل وشهوات متعددة كلما جربوا واحدة انتقلوا إلى أخرى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾:

من علامات رحمة الله سبحانه بالناس أن حرَّم أكل الأموال بالباطل وسفك الدماء بالباطل فنزه شريعته سبحانه عنه.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾:

التعدي على أموال الآخرين لا يكون إلا ظلما وعدوانا، وكل من أخذ ما لا يستحق فهو ظالم معتد.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾:

لا يخلو الإنسان من وقوع في الخطأ والإثم، ومن رحمة الله بعباده أنه لم يشترط لدخول الجنة السلامة من جميع الذنوب ولا العصمة منها، وإنما طلب منهم اجتناب

الكبائر، ثم أخبر أن من اجتنبها فسوف يُكفَّر عنه ما سواها ويدخله مدخلا كريما. وهذا من فضله وكرمه ورحمته بعباده سبحانه. ومن اجتناب الكبائر أداء المفروضات كالصلوات الخمس وصيام رمضان. قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «وأحسن ما حدت به الكبائر أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو نفي إيمان أو ترتيب لعنةٍ عليه أو غضب».

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾:

ما أعظم هذه الآية، فهي تراعي البعد النفسي وحاجة الفرد والبعد الاجتماعي في علاقة الفرد بالآخرين، فالشخص قد يعجبه ما عند الآخرين مما فضلهم الله به، فعليه أن يحذر من حسدهم كما يحذر من ازدراء ما أنعم الله به عليه، والحسد تمني زوال النعمة عن الآخرين.

وعلى العبد أن يسعى في الكسب وله أن يسأل الله من فضله، فيشكره على نعمه ويسأله المزيد، ويوضح هذا المعنى قول الله سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾:

تناولت هذه الآية الميراث بالحِلْفِ وهذا كان في أول الإسلام ثم نسخ.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ

فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾:

هجر الزوج زوجته في الفراش قاس ومؤلم للمرأة، ولهذا جعله الله عقوبة للمتمردة على زوجها بعد وعظها عن فعلها السيئ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾:

مما يؤثر في نجاح مسعى الحكمين في الإصلاح إرادة صلاح ذات البين عند الزوجين، فالإصلاح لا يعتمد فقط على إرادة الحكمين، بل لا بد من نية ذلك عند الزوجين المتخاصمين، ولهذا ينبغي للمصلح أن يوضح ذلك لهما وينصحهما بسلامة النية والميل للصلح، ويبين أنه حتى لو سلّما بالصلح وهما لا يرغبانه فسوف يتنازعان عند أول اختلاف.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾:

تأمل الربط بين عبادة الله وبر الوالدين وصلة الرحم وحسن الجوار، فالعبادة الصحيحة تهدي إلى ذلك؛ إلى سلم اجتماعي وعلاقات حسنة بالآخرين، وإن وجدت عابدا سيئ العلاقة بوالديه أو جيرانه وذي رحمه فما ذلك إلا لفساد في عبادته.

هذه الآية جاءت بعد الإصلاح بين الزوجين فلعل في هذا إشارة إلى ما ينبغي أن يَعتني به من يسعى للإصلاح، فمما ينبغي أن يسأل عنه الساعي للإصلاح عند كل طرف

عبادة الله وحده والإحسان إلى الوالدين وذي القربى والضعفاء من الأيتام والمساكين والجيران والبعد عن الاختيال والفخر، والسؤال عن هذه القضايا يكشف عن نمط حياة الشخص هل هو متسم بالرحمة وعمل الصالحات إلى الآخرين أم أنه يدور حول ذاته فقط مشغول بنفسه يختال على غيره.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾:

الذين يبخلون بدل من قوله: ﴿مَنْ كَانَ﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ والجملة مستأنفة: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾:

هذه الآية والتي قبلها بيان للمختال الفخور الذي لا يحبه الله سبحانه، فهم يبخلون بمالهم أو بما آتاهم الله من فضل ويأمرون الناس بذلك، وإذا أنفقوا أنفقوا رياء، والموجه لهم في تصرفاتهم هو الشيطان وبئس القرين لهم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ إما متعلق بـ﴿نَصِيرًا﴾ أو هو خبر مقدم لمبتدأ محذوف تقديره قوم يحرفون الكلم... وهذا مذهب سيبويه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾:

الذين يزكون أنفسهم ويتظاهرون بما ليس فيهم من التقوى خداعا للناس، هم في الحقيقة لا يكذبون على الناس فقط بل يكذبون على الله، وأي إثم أعظم من الكذب على الله سبحانه.

ومعصية الله تكون بالتخلف عن أمره، أو بارتكاب ما نهى عنه، وهذا ليس كذبا على الله وإنما هو معصية له، أما تزكية النفس فهو معصية وكذب على الله فهو أعظم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾:

هذه الآية تعالج العلاقة بين الناس وبين أولي أمرهم في حالة الطاعة والسلم وفي حالة الخلاف. ولم تصف الآية فريقا بالشقاق أو المعصية، ووصفت ما بينهم بالنزاع وأوجبت رده إلى الله والرسول، والرد إلى الله والرسول هو رد إلى أهل العلم بالشريعة يحكمون فيه وهؤلاء جهة ثالثة، ولا ينبغي للحاكم أن يلزم الناس برأيه ولا ينبغي للناس أن يلزموا الحاكم بما يرونه وإنما الجميع يخضعون لحكم الله فيما تنازعوا فيه.

وهذا يقتضي أمورا:

أولا: تطوير آلية نزع الخلاف وفض النزاع بين الناس وحكامهم بحيث يكون لتلك الجهة الثالثة استقلال عن إرادة الطرفين.

وثانيا: أن يكون لها من القوة ما تلزم به الطرفين للخضوع لحكمها في مسائل النزاع. وكل حكم لا نفاذ له فهو كعدمه. ومما يحقق ذلك تفتيت القوة فلا تجتمع في يد الحاكم بل توزع بينه وبين الشعب وممثليه.

والقوة أنواع، منها: قوة الجيش، وقوة الأمن، وقوة المال، وقوة إصدار الأنظمة، وقوة الإعلام. كل هذه قوى وسلطات فإن اجتمعت في يد الحاكم ربما دفعه ذلك للطغيان والبغي والاستهانة بالشعب وبحقوقه ومصالحه ومن يمثله.

وتفتيت السلطات يحتاج إلى أمرين:

الأول: ثقافي معرفي، وهذا يبحث عن الغاية ومقصد كل سلطة من هذه السلطات، فهي إما أن تكون في خدمة الشعب أو في خدمة الحاكم، وتغيير هذا ينبغي أن يمتد ليصل أفراد الشعب، فيستقر في وعيهم أنها لخدمة الشعب وليس الحاكم، فإذا طُلِبَ من فرد منهم ما يخالف ذلك استنكر واستنكف.

والثاني: يتعلق بمن له الحق في إصدار الأمر واستخدام هذه السلطة ومحاسبتها هل هو الحاكم ومن يمثله من الحكومة أم هو الشعب.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾:

في هذه الآية دليل على أن محبة الوطن محبة فطرية.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾:

هذا الذي وصف بأنه فضل من الله وجاءت الإشارة إليه باسم الإشارة للبعيد للدلالة على علوه ورفعة شأنه هو طاعة الله ورسوله، فاسم الإشارة يعود إلى ما ذكر في الآية السابقة وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، والتنويه بفضل طاعة الله والرسول جاء في سياق معصية اليهود لله ورسوله في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا

عَلَيْهِمْ ... مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾، وفي سياق طاعة المنافقين لله وهي طاعة تبحث عن كسبها المادي، ولا تعنيها حقيقة الطاعة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾.

ثم ختم الله السياق ببيان الطاعة الحقيقية التي يريدها سبحانه من عباده فقال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، فأعظم ضابط لطاعة الله أن يقدم العبد مرادات الله على مرادات نفسه.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾:

هذا توجيه لمن عندهم شك في القرآن في كيفية التأكد منه واختبار صدقه، وهو توجيه عقلي يدركه العقلاء، فهم يعلمون أن ما يقوله الناس ويكتبه العقلاء إذا كان على مدى زمني طويل يقع فيه الخطأ والتناقض، إما بسبب الجهل أو معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من قبل.

وهذا الأسلوب من التحقق الذي ورد في الآية يمكن أن يسمى الشك العلمي أو المنهجي وهو يقوم على افتراض فرض ثم اختباره للوصول إلى اليقين، وهناك نوع من الشك يقع فيه البعض وهو الشك الفكري، وهو لا يختبر فروضا ولا يبغي الوصول إلى يقين فيما شك فيه، وإنما حالة شك مستمرة. هذا النوع من الشك مدمر ومذموم، لأنه لا يبحث عن العلم ولا يسعى للوصول إلى الحقيقة.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

قوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾، هو المفتاح لفهم الآية. قضايا الأمة الكبيرة وما يهددها لا ينبغي أن تكون مجالا للإذاعة والتداول بين الناس، فإن هذا يفضي إلى اتباع الشيطان، فيكون الموجه للناس هو الأهواء فتضطرب أمورهم، وينبغي رد هذه الأمور إلى أولي الأمر

المختصين بمثل هذه القضايا، وأثر هذا الرد ينبغي أن يكون ظاهرا للناس في توجيههم بما ينبغي عليهم فعله، وهذا التوجيه يكشف عن قدرتهم في الاستنباط والفهم.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾:

أبرزُ أعمال المنافقين المخادعةُ، وهم يظنون أنهم يخدعون الناس وتخفى عليهم حالهم.

تأمل هنا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ فعملهم الذي يظنونه غاية الذكاء، هو الذي أركسهم، وأركسهم بمعنى نكسهم وأوقعهم في سيئ فعلهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فالمنافق لا يكتفى في التعامل معه بقوله ودعواه، بل لا بد من العمل الصريح كالهجرة، وتأمل هذا الأمر بالشدة معهم إنْ أصروا على ضلالهم: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ولا يماثل هذا الأمر إلا ما ورد في سورة التوبة عن المشركين بعد فتح مكة فأمر الله بقتالهم قتالا عاما حتى يسلموا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

تأمل تعظيم شأن النفس المعصومة وحرمة القتل وإزهاق النفوس، في هذه الآية والتي بعدها، فعظم الله شأن القتل وشدد في تحريمه في ثلاثة مواضع:

الأول: حينما نفى أن يقوم مؤمن بقتل أخيه المؤمن، فنفى أن يقوم بالقتل مؤمن، فالقتل لا يتفق مع الإيمان.

والثاني: حينما عاقبه بما يطهر به نفسه من التسبب في قتل أخيه خطأً، بعتق رقبة، فإن لم يستطع فبصيام شهرين متتابعين.

وهذا غير الحق الخاص في قتل العمد، وهو إما القصاص أو الدية إلا أن يعفو ولي الدم.

والثالث: توعده في الآخرة بالخلود في عذاب جهنم وغضبه واللعن والطرد من رحمته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

هذه الآية تنفي المساواة في الأجر بين المجاهدين ومن لم يجاهدوا وهم القاعدون،

واستثنت من نفي المساواة أولي الضرر فهم ملحقون بالمجاهدين، ومع هذا الفضل والجزاء العظيم للمجاهدين قال الله سبحانه وكلا وعد الله الحسنى، فهم وإن لم يجاهدوا وتخلفوا عن الجهاد بإرادتهم إلا أنهم موعودون بالحسنى إذا أحسنوا العمل.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾:

الصلاة هي العبادة التي ورد تنظيمها في حال الإقامة وفي حال السفر وفي حال الأمن وفي حال الخوف، والصيام ورد له صفتان في الإقامة وفي السفر، والصلاة زادت بصفة صلاة الخوف، وهذا ليس فقط دليلا على فضلها، بل أيضا دليل على حاجة الخائفين والمقاتلين إليها، فهي تطمئن قلوبهم وتريحهم من عناء الهم وانشغال الذهن وتصرفهم إلى الله سبحانه.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾:

هنا توكيد على الخائف والمقاتل بالإكثار من ذكر الله لعظيم أثر ذلك في القلب.

قوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي إذا زال الخوف فأدوا الصلاة كاملة.

في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾، دليل على أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة ولا تصح منهم حتى يسلموا.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

كل عبادة بل كل عمل يعتوره عاملان، قدرةُ البدن وانشراحُ القلب ورغبته، فالبدن يتألم، وهذا مشترك مع جميع العاملين، فما من عامل إلا وهو يتعب ويتألم من العقبات ومن طول الطريق، ويخفف من ذلك بل يمنع تأثيره عمل القلب.

ما المشاعر التي ازدحم بها القلب عند العمل؟ هل أحبه؟ هل يرجو ثوابه هل فرح به؟

كل هذه أعمال للقلب تجعله لا يبالي بتعب الجسد.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

في الآية إشارة إلى أن أكثر نجوى الناس ليست من المعروف والخير الذي يقبله عرف الناس ولهذا يستترون بها.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾:

هذا تهديد شديد لمن عرف الحق ثم استمر مشاقا للرسول، مخالفا للدليل، مجادلا بالباطل، متبعا غير سبيل المؤمنين، فإن الله سبحانه يتركه يهلك ويستمر في ضلاله والطريق الذي اختاره.

وفي الآية إشارة إلى علامة من علامات الباطل في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فذو الباطل ليس له سلف من المؤمنين، والصراط المستقيم له سالكون من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فمن انتهى إلى رأي في مسألة علمية من مسائل الشريعة وليس له فيها سلف من المؤمنين من الصحابة ومن علماء الأمة وأئمتها فهو على ضلالة.

والله سبحانه كما عرَّف الحق عرَّف أهله، فالحق لا يُعرف إلا بهم وهم لا يُعرفون إلا به، فليس هناك حق مجرد لا أتباع له، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا تعريف للحق، ثم عرف أهله فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم بين المنعم عليهم فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

والله سبحانه كما تكفل بحفظ الحق تكفل بحفظ أهله، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال ﷺ في حفظ أهله: «**لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أمر اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»[1]، وفي رواية: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأمر اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أو خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أمر اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**»[2].

قال أهل العلم: «هذا الحديث ثابت متواتر من جهة استفاضة ثبوته عند الأئمة، ومخرج في الصحيحين من غير وجه وفي غيرهما»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٣١١).
(٢) «صحيح مسلم» (١٠٣٧).
(٣) «شرح حديث الافتراق» (٣/ ٣).

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾:

تغيير خلق الله مخالف للفطرة، فهي مما أمر به الشيطان، ومن نظر في أحوال الغربيين الآن وعبثهم بالخلق وتغييرهم للخلقة التي خلقوا عليها أدرك ذلك.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾:

هاتان الآيتان تتضمنان قاعدة في جزاء الأعمال، فكل من عمل عملا فهو ملاقيه ويجزى به إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

في هذه الآية إرشاد لمن يتصدون للصلح بين الناس بأنه يغلب على النفوس الشح وتعظيم مكتسباتهم حتى وإن ادعوا خلاف ذلك، ولهذا على المصلح أن يراعي هذا الجانب ما أمكن. وهذه الآية تضاف إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، فمن يريد أن يصلح بين الزوجين عليه أن يراعي رغبتهما في الإصلاح وحرصهما عليه، وعليه أيضا أن يتنبه إلى أن من طبيعة النفوس الشح بحقوقها فلا تتنازل عنها بسهولة.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

في هذه الآية إشارة إلى أن أكثر موالاة من والى الكفار من المسلمين سببها الرغبة في العزة، والعزة تتنوع، فمنها التمكن من بعض مصادر القوة الاجتماعية، كالوجاهة والمال أو الرياسة، ومنها حفظ السلطة أو حفظ المصالح الخاصة، وهؤلاء يجهلون أن كل أنواع العزة لله سبحانه.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾:

حينما تعيش في مجتمع فيه أخلاط من المؤمنين والكافرين فليس المطلوب اعتزال مجالس المخالفين تماما، وإنما اعتزالها في حالة واحدة وهي إذا خاضوا في دين الله فسخروا منه، وإلا فينبغي التواصل معهم في مجالسهم وغشيانها لأنك بذلك تبلغهم دين الله سبحانه.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾:

ما المقصود بالسبيل؟

السبيل هو السلطة، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، أي: تسلطا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفعٍ لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان، حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم

ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله الحمد أوّلا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا»[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾:

هاتان الآيتان دليل قاطع على بطلان ما يزعمه البعض من أن الردة من الحرية الدينية، فهؤلاء آمنوا ببعض ما أنزل الله وكفروا ببعضه مما يخالف أهواءهم فحكم الله عليهم بأنهم كافرون حقا وتوعدهم بالعذاب المهين.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

ما في هذه الآية فسرته الآية رقم (١١٥) من السورة نفسها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، فقوله: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ هو بمثابة الطبع على القلب والعياذ بالله، والطبع نتيجة لمشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾:

أهل الكتاب هنا هم النصارى لأن الحديث عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢١٠).

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

هل توجد طائفة أخرى غير اليهود ذكر الله في كتابه أنها تتعامل بالربا؟

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ منصوب بين مرفوعات، اختار سيبويه أنه منصوب على المدح، وقال النحاس هذا أصح ما قيل في المقيمين، واختار الكسائي والخليل أنه معطوف على بما أنزل إليك[١].

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾:

الغاية من بعث الرسل بيان التوحيد وقطع كل حجة يمكن أن يحتج بها الناس في عدم البيان، فليس هناك حجة يمكن أن يحتج بها الكفار إلا وبين الله بطلانها، وليس هناك حجة نافعة في بيان التوحيد إلا وقد تضمنتها رسالة الأنبياء وبينوها للناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾:

الأصل في إرسال الرسل أنه لهداية من ضل، لكن هؤلاء بسبب ما جمعوا مع كفرهم من الظلم لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم إلا إلى طريق جهنم، فهم ينتقلون من ضلال إلى ضلال، ومن ظلم إلى ظلم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

---

(١) «فتح القدير» (١/ ٦١٩).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾:

المقصود بأهل الكتاب هنا النصارى بدليل قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

قال ابن عاشور في بيان الفرق بين استنكف واستكبر: «وَالِاسْتِنْكَافُ: التَّكَبُّرُ وَالِامْتِنَاعُ بِأَنَفَةٍ، فَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الِاسْتِكْبَارِ»[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾:

المقصود بالناس هنا هم أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أمة الدعوة، وأمة الإجابة، بدليل الآية التي بعدها فقد فصل في الناس فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾.

(١) «التحرير والتنوير» (٦/ ٥٩).

سُورَةُ المَائِدَةِ

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ قاعدة في جميع ما أباحه الله عَزَّوَجَلَّ، فالله لا يبيح لعباده إلا طيبا.

ولا يشرع لهم من العبادة إلا ما هو يُسْر لا حرج فيه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

ولا يحرم عليهم إلا الخبيث، وقد وردت هذه القواعد الثلاث في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

أي سعة وأي رحمة وأي تسامح أعظم من أن يقبل المسلم أن يعيش في بيته من يخالف دينه وتكون أما لأولاده، ويأمره الإسلام ألا يمنعها من أداء شعائر دينها، مع ما في هذه الشعائر من الخطأ والضلال والشرك. إن زواج المسلم بالكتابية فيه معالجة لمشكلة أهل الكتاب حينما يسلم الرجل وتصر المرأة على البقاء على دينها، إن الإسلام لا يأمر بإكراهها على الإسلام بل ينهى عن ذاك، ويتيح لها التعرف على الإسلام عن قرب، ومعايشته مع زوج مسلم يكرمها ويحفظ حقها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

في قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق، و«إلى» هنا بمعنى «مع» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم، فإذن المرفق يغسل مع الأيدي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

العدل قيمة عظيمة، ولا يجوز للمسلم أن يعتدي وينتقل من العدل إلى الظلم والجور حتى لو اعتدى عدوه الكافر، وهذا المعنى ورد هنا في هذه الآية: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وورد في الآية الثانية من هذه السورة فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾:

من العقوبات الشديدة التي قد لا يشعر بها من أصيب بها قسوة القلب، فلا تنفذ منه مشاعر الرحمة ولا يستجيب لموعظة ولا يتورع عن سيئة.

قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ ذكر ابن كثير عن قتادة أنها منسوخة بآية السيف، وذكر النسخ أيضا الشوكاني، وابن عطية[١].

وممن لم ير في الآية نسخا ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢/ ١٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٠)، و«فتح القدير» (٢/ ٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٢٢٦).

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾:

عقوبة ترك شيء من الدين الخلاف بين أهله المفضي للعداوة والبغضاء، ولا ترتفع العداوة ولا يزول الخلاف حتى تعود مرجعية الدين كاملة يتحاكمون إليها فما أثبته الدين أثبتوه وما أبطله أبطلوه.

يؤيد ذلك ما ذكره الله في الآيتين التاليتين، فالرسول يبين للناس ما يخفون من الكتاب ويهديهم إلى سبل السلام. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾:

جاء في تفسير ابن سعدي وغيره: وجعلكم ملوكا أي تملكون أمركم بعد أن كنتم مملوكين مستعبدين[١].

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾:

لو كان القائد أو الحاكم يستطيع أن يغير الشعب وحده لتغير بنو إسرائيل بوجود موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، تغيير بني إسرائيل وإزالة آثار فرعون عنهم اقتضت أربعين سنة من

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٢٧).

التربية، يفنى فيها الجيل الذي اعتاد على إذلال فرعون، وينشأ جيل آخر تربى على العزة والأنفة مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾:

هذا أول صراع وقع في الأرض بين بني آدم، ومعصية الأبوين كانت في الجنة بالأكل من الشجرة، كان سببها حسد إبليس الذي وسوس لآدم، والصراع بين ابني آدم سببه الحسد أيضا، فعداوة من عاداك وخلاف من خالفك قد لا يكون سببها خطأً وقع منك في حقه، وإنما سببها نعمة الله عليك وما فضلك الله به.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾:

الحكم بما أنزل الله جزء من توحيده عَزَّوَجَلَّ، فمن عبد الله وما حكم بشرعه مع قدرته على ذلك فما وحّده على الحقيقة، بل هو وعابد الوثن سواء، هذا فيمن اتخذ قوانين يتحاكم إليها الناس وفرض عليهم شريعة بدلا من شريعة الله، أما من حكم بغير ما أنزل الله هوى ومحاباة أو لرشوة فلا يكفر إلا إذا استحل ذلك.

ماذا عن القاضي الذي يلزمه الحاكم أن يحكم بين الناس بالقانون الوضعي هل يكفر؟

الذي يظهر والله أعلم أنه لا يكفر إلا إذا استحل، ولو سعى في تقليل الظلم وإقامة العدل وإيصال الحقوق إلى أصحابها لكان إن شاء الله مأجورا، كما قرر ذاك

ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن ولاه الحاكم جباية المكوس فسعى بين الناس بالعدل وخفف عنهم الظلم[(١)].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾:

قال بعض الباحثين إن الإنجيل مجرد مواعظ وليس فيه أحكام أو تشريعات، وهذه الآية تدل على خلاف ذلك وأن فيه تشريعات يجب الحكم بها، والأناجيل الموجودة الآن ليست هي الإنجيل المنزل على عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإنما هي سيرته كما رواها حواريوه، وقد اشتمل ما نقلوه على بعض أقواله، وبعض ما أوحاه الله إليه، وبعض الحوادث التاريخية، وهي منقطعة السند ولذلك فيها تعارض وتناقض وأخطاء وحكايات وأخبار لا أصل لها.

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾:

تأمل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، فالإعراض عن التحاكم إلى الشريعة متضمن عقوبة من الله بسبب بعض الذنوب.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾:

كل حكم سوى حكم الله هو حكم الجاهلية.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٣٥٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

ذلك أن الله تكفل بحفظ هذا الدين وتكفل بحفظ طائفة تقوم به وتدعو الناس إليه.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

شأن المنافقين في كل عصر التهوين من شأن شعائر الله والسخرية بأهلها ومنع أدائها.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ما يفيد أن العداوة بين الجماعات والطوائف اليهودية أمر قدري لا ينفك عنهم ولا يستطيعون التخلص منه، ما داموا على يهوديتهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾:

قال ابن سعدي في قوله: ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾، أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملا غير قوي ولا نشيط[١].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٣٩).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

المقصود بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ قال الشنقيطي: «وأحسن أوجه الإعراب فيه أنه في بدل من واو الفاعل في عموا وصموا كقولك جاء القوم أكثرهم»[١].

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾:

قال ابن سعدي: «والصديقية: هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح»[٢].

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾:

كانوا لا يتناهون عن المنكر، فقد أصبح عرفا للمجتمع أو أن ممارسته أصبحت أحد الخيارات الاجتماعية المقبولة، أو أن ممارسة المنكر أصبحت تستند إلى قاعدة حقوقية يعترف بها المجتمع فأصبحت من حقوق الإنسان أو أنها من الليبرالية التي سادت المجتمع، أيا كان ذلك فبهذا الفعل استوجبوا لعنة الله لهم وأصبح المجتمع محلا للعقوبة.

---

(١) «أضواء البيان» (١/ ٤١٨).

(٢) «تفسير السعدي» (ص٢٤٠).

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

هنا قاعدة عامة:

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، وبالتواضع يكون الإنسان أكثر قبولا للحق(١).

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾:

لما حرم الله الخمر تساءل بعض الصحابة عن حال إخوانهم ممن ماتوا على الإسلام وهم يشربون الخمر قبل أن تحرم فأنزل الله هذه الآية في نفي الحرج عنهم.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

في هذه الآية بيان للمكانة الاجتماعية والاقتصادية للكعبة ولبعض الشعائر، فبالكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد تقوم مصالح الناس الدينية والدنيوية ويحفظ معاشهم وكسبهم.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾:

تتابع الآيات المؤيدة على أمر مما يزيد الإيمان به ويجعل القلوب تطمئن.

---

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٢٤٢).

سورة الأنعام

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾:

لماذا عبر بخلق للسموات والأرض وعبر بجعل للظلمات والنور؟

تحدث عن هذه المسألة الطاهر بن عاشور ونقل عن الزمخشري في: «خلق» ملاحظة معنى التقدير وفي: «جعل» ملاحظة معنى الانتساب، يعني كون المجعول مناسبا لشيء آخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، فهنا الزوج وهو الأنثى مراعى في إيجاده أن يكون تكملة لخلق الذكر، وأوضح ذلك بقوله ليسكن إليها، وهذا دليل آخر على وجود الخالق سبحانه، فهو الذي جعل المخلوقات يكمل بعضها بعضا وينتسب بعضها بعضا سبحانه[(١)].

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ١٢٦).

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾:

بعض الذنوب مهلكة لأصحابها وتكون سببا في زوالهم بالكلية، وكانت الأمم السابقة تعاقب بالاستئصال فتفنى الأمة عن بكرة أبيها.

أما هذه الأمة فقد رفع الله عذاب الاستئصال عنها رحمة بها، وإكراما لنبيها، لما دعا ربه ألا يهلكهم بسنة عامة(١).

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾:

هذا أحد ذنوب الأمم التي تهلكها وهو الاستهزاء بالرسل وشريعتها، وهذا أعظم أسباب عذاب الاستئصال.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾:

هل تكذيب الأنبياء ذنب تابع لما سبقه وهو الاستهزاء، أو هو ذنب مستقل وهو سبب للهلاك، وعادة تكذيب الأنبياء والاستهزاء بهم متلازمان.

والمستهزئ بالرسل مكذب بهم من باب أولى، ولكن لا يلزم من التكذيب الاستهزاء.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

لما ذكر أن جميع ما في السماوات والأرض ملكه سبحانه قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فهو يدير هذا الخلق برحمته عَزَّوَجَلَّ، ولهذا فضله عمّ من عصاه وأعرض عنه، ورزق الكافر والمؤمن.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٨٩).

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾:

الرسالة واضحة الدلالة واضحة البيان فلم يستطع الكفار تكذيبها ومع ذلك لم يؤمنوا وجحدوا بالرسالة، وهذا يقتضي من الداعية تنويع الخطاب، فهناك الخطاب العقلي، والخطاب العاطفي، والخطاب الاجتماعي، وبيان مصالح الناس وربما خطاب القرابة والقبيلة، فحمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسلم غضبا لابن أخيه.

في قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ إشارة إلى أن التصديق غير الإيمان. الإيمان يعني القبول بما جاء به الرسول، وهذه مرتبة أعلى من مجرد تصديق الرسول فيما قاله، فقد يصدقه ويرى أن ما قاله حق ولكنه لا يقبله ولا يتبعه، وهذا المعنى ورد في أكثر من موضع في القرآن، منها هذه الآية ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ويستفاد من الآية أن الداعية يحتاج إلى عبارات التأييد والتطمين من إخوانه فلا ينبغي لهم البخل بها.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

إعراض المشركين عن الداعية قد لا يكون بسبب تقصير الداعية في البلاغ، فينبغي ألا يدفعه ذلك إلى تغيير أهداف دعوته ليقبل بها المشركون، وتحريف الدعوة هو مطلبهم وإذا انحرف الداعية في دعوته يكون ما بلغهم دين الله ولا دعاهم إليه.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾:

من أعرض عن الدعوة فهو كالميت الذي لا يسمع، والسماع الحقيقي شرط لسماع الدعوة والاستجابة لها. والسماع بقصد يسمى استماع، والعارض من غير قصد هو سماع.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

الذين كذبوا بما أرسل به الرسل لم يستخدموا حواسهم استخداما سليما ليدركوا إدراكا صحيحا، ولهذا وصفهم بأنهم صم وبكم.

أحد مقاصد حوادث الدهر وفواجعه أن يعود العباد فيتضرعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ تائبين منيبين ويصححوا طريقهم إليه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

يبلغ الضلال في القلوب حدا يجعلها لا تستفيد من المواعظ الربانية ولا تستيقظ من ضلالها وتصر على باطلها رغم أنها ترى مقدمات العقوبة والعذاب، هذه القلوب قاسية لا تنفعها موعظة، وترى أن ماهي عليه من الضلال أمر حسن. إن مكان الإدراك الحقيقي هو القلب.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾:

أصابتهم شدة لعلهم يتعظون فلم يتعظوا ففتح الله عليهم أبواب كل شيء مما يمكن أن يفرحوا به: من المال والشهوات وأسباب القوة، فانشغلوا بما فتح عليهم ونسوا ما وعظوا به، فحق عليهم العذاب بغتة والعياذ بالله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾:

قال الشوكاني: «ووحد الضمير في ﴿بِهِ﴾ مع أن المرجع متعدد على معنى فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور»[(١)].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾:

أهل الجاهلية يرتبون منازلهم من الله وفقا لمنازلهم في الدنيا، فيظنون أن أصحاب الجاه والمال هم الأقرب إليه عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية يخبرنا الله سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأن الأقرب إليه والأولى بالهداية هو الأكثر شكرا له سبحانه.

وفي هذه الآية أيضا تنبيه للمؤمنين لمن أراد أن يكون أقرب إلى الله فعليه أن يكون أكثر شكرا لنعمه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ١٣٤).

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾:

استبانة سبيل المجرمين بدراسة خططهم ومكرهم مما يحتاج إليه المسلم لإقامة دينه وزيادة وعيه. والله سبحانه بين في القرآن ثلاثة سبل:

١- سبيل المنعم عليهم وهو سبيل الاستقامة على الحق.

٢- وسبيل الضالين والمغضوب عليهم وهو سبيل الانحراف عن الحق.

٣- وسبيل المجرمين وهو سبيل الكيد لأهل الحق.

وعلى المسلم أن يدرس هذه السبل الثلاثة؛ وإن شئت فقل السبل الأربعة، إذا فصلت بين سبيل المغضوب عليهم وسبيل الضالين، والأولون قوم ضلوا وهم يعرفون الحق ولكنهم ضلوا حسدا وكبرا، والآخرون ضلوا جهلا.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾:

نصرة الضعيف والمظلوم إحدى صفات الله التي يلمسها العبد، وما من أحد إلا ويمر بلحظات كرب وضعف فيتجه لله يدعوه فيجيبه، ويرى نصر الله له رأي العين. ومن الخذلان أن يشكر العبد إذا نجى غير الله الذي نجاه، فيكفر به ويعرض عنه.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾:

بعض صور هلاك الأمم: منها أن تضطرب بيئتهم المادية فيصيبهم الخسف أو الغرق أو الرجم، وقد هلكت أقوام بكل ذلك، ومنها أن تضطرب بيئتهم الاجتماعية فتفسد

علاقاتهم وتنقطع أواصرهم فيتقاطعون ويتدابرون، فيفقدون الأمن في مجتمعاتهم وينتشر بينهم الغش والفساد والخيانة. وإدراك مؤشرات العقوبة سواء كانت مادية أو اجتماعية هو من الفقه الذي ندبنا الله إليه.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

مقاطعة مجالس الكفار أو مجالس الجاهلية ليست مطلقة، بل مقيدة بخوضهم في آيات الله واستهزائهم بما أنزل، ولو كان الهجر مؤبدا مطلقا لما بلغتهم الدعوة.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾:

وهذا ذنب آخر.

والإبْسالُ: الإسلام إلى العَذابِ، وقِيلَ: السَّجْنُ والِارْتِهانُ، وقَدْ ورَدَ في كَلامِهِمْ بِالمَعْنَيَيْنِ وهُما صالِحانِ هُنا. وأصلهُ مِنَ البَسْلِ وهو المَنعُ والحَرامُ[1].

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٧/ ٢٩٧).

وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

ما الحجة التي آتاها الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم؟

هل هي قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؟

قوم إبراهيم مشركون مؤمنون بالله خالقا ورازقا، لكنهم يشركون معه غيره في العبادة لأنهم يعتقدون أنه يشفع لهم. وإبراهيم قال لقومه: أنه يعبد الله الذي يؤمن الجميع - إبراهيم وقومه - على أنه الخالق الرازق، ومن عبد الخالق الرازق فلا بد أن يأمن، وأما ما تعبدونه من أصنام وتشركونهم مع الله فهل عندكم من دليل على أنهم شفعاء أو شركاء لله؟

إن لم يكن عندكم دليل فيجب أن تخافوا عاقبة الشرك، لأن الله يغضب إذا أشركتم معه غيره.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

الضمير في قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾، يعود إلى المذكورين من قبل وهم: الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فهؤلاء الذين اصطفاهم الله لو أشركوا لحبطت أعمالهم، وفي هذا رد على بعض الطوائف التي تزعم أن من شيوخها وأئمتها الأحياء من سقط عنهم التكليف أو أنهم بلغوا منزلة لا يُسألون عما يفعلون.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

هؤلاء المشركون أو اليهود يجهلون قدر الله حيث نفوا أن يكون سبحانه أنزل وحيا على أحد من عباده، ويقعون أيضا في التناقض والكذب، فهم يسلمون بما أنزله الله على موسى أو ببعضه، ويرد الله عليهم بأن الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى هو الذي أنزل القرآن على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾:

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق.

وقوله: ﴿مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ اسم الفاعل دليل على الثبات والدوام[(١)].

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾:

هذا دليل في دقة علم الفلك وانضباطه، والانضباط هو ما يتعلق بحركة الكواكب والافلاك، أما ما له ارتباط بفعل الناس كالرؤية فهو يختلف من مكان إلى آخر ومن شخص إلى آخر.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٧/ ٣٨٩).

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

لا بد أن يراعي الداعية نفوس من يدعوهم ومحبتهم للباطل الذي هم عليه، فيتلطف في الدعوة ويتجنب سب ما هو معظم عندهم، فهذا لا يفيدهم في إبطال الباطل، لأن السب ليس دليلا، وإنما يثير غضبهم فيصدهم عن الحق.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾:

يستفاد من قوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أن أعمال العبد السيئة قد تكون سببا في صده عن الهدى.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾:

تفيد هذه الآية أنه لا يلزم من قوة الحجة إيمان المخاطب إذا كان قلبه منكرا للإيمان، فلا بد من استعداد القلب وطلبه الحق متى ظهر له، وإلا فلن يستفيد.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾:

هنا ذكر لبعض من قد يصد عن الهدى، وهم الأصحاب القريبون المؤثرون على الشخص ممن يستمع لهم، وكذلك القوى المعارضة للدعوة والمؤثرة في المجتمع وهم أصحاب السلطان والمتبوعون، وكذلك شياطين الجن ووسوساتهم للناس، وكما أن شيطان الإنس يستفيد من شيوع الباطل في تحقيق مصالحه، كذلك شيطان الجن يستفيد من شيوع الباطل في تحقيق مصالحه.

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾:

هذه الآية والآيات التي قبلها تناولت المؤثرات في صناعة الرأي أو الإقناع وما يضاده:

١- الأدلة

٢- قوة الحجة، فحسن العرض وتركيب الأدلة على بعضها يعطي الدليل قوة.

٣- استعداد القلب، فالقلب إذا كان رافضا للحق معاندا له قد لا يستجيب للحق حتى لو ظهرت الأدلة.

٤- تزيين الباطل في القلب، فما من صاحب باطل مستمسك به إلا وهو يراه حسنا، فيعز عليه تركه.

٥- الأصحاب المؤثرون.

٦- ذوو السلطان والمتبوعون.

٧- شياطين الجن.

٨- الناس الذين حوله واتباعهم الباطل وضغطهم على من يخالفهم.

ونبه الله هنا إلى أن الأكثرية ليست صاحبة رأي محرر، وإنما هو اتباع للظن، ورأيهم هو نوع من الخرص الذي لا يستند إلى دليل صحيح.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾:

بعد الآيات التي تناولت قبول الحق وما يصد عنه ويعارضه ذكر الله هنا ما يأكله العبد فهل للطعام إذا كان حلالا علاقة بقبول القلب للحق.

ورد في الحديث الصحيح أن للطعام علاقة بإجابة الدعاء[1].

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾:

وهذا عامل آخر له تأثير في قبول الحق، فالعبد الذي يتجنب الإثم ويتحرز من الظلم سرا وعلنا وما يأثم به القلب أحرى باتباع الحق والبعد عن الباطل.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾:

من عادة أولئك الذين يأكلون ما حرم الله أنهم يجادلون مخالفيهم ويدعونهم إلى باطلهم، فيشاركونهم في مأكلهم الفاسد، وهذا الأكل الفاسد فسق مفسد لطبيعة الشخص مضل لقلبه.

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

تأمل المقابلة بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون لهم نور يميزون به العمل الحسن من السيئ ويدركون به مآلات الأعمال، والكافرون زين لهم سوء عملهم فهم باقون عليه وفيه هلاكهم.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

هنا ذكر لذوي السلطان الضالين والمتبوعين المؤثرين الذين يصدون عن الحق فهم في الحقيقة يسعون في هلاك أنفسهم، ومكرهم إنما هو بأنفسهم، وهم لا يشعرون

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٠١٥).

بذلك فهم مستمرون في عملهم الذي يدمرهم، وهذا من تزيين العمل السيئ في نفس صاحبه، كما قال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وكما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾:

الصغار الذي أصيبوا به بسبب ما في نفوسهم من الكبر الذي جعلهم يطلبون ما ليس لهم، ويرون أن لهم حقا في الرسالة، وهذه عقوبة لكل متكبر.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾:

من عدله سبحانه أنه لا يهلك القرى بسبب شركهم وظلمهم وهم غافلون عن الحق إلا بعد أن يتقدم إليهم بنذير يبين لهم ضلالهم ويدعوهم إلى الدين الحق.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾:

تكرر في القرآن تزيين العمل السيئ للكافرين والمجرمين والمسرفين اثنتي عشرة مرة، فهناك علاقة بين الضلال واتباع الهوى وتزيين العمل السيئ، وهذا يوجب على المسلم الحذر ومراجعة عمله وتفحصه، لئلا يكون على ضلال وممن زُين له سوء عمله -والعياذ بالله- وهو لا يعلم.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾:

هنا يعرض الله حجة من حجج الكفار للإعراض عن الحق، وهي الاحتجاج بالقدر، ويرد عليهم هل قولكم هذا يستند إلى الظن أم إلى علم صحيح؟، فإن كان ثمة علم فأخرجوه لنا.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

بعد أن بين الله عَزَّوَجَلَّ بطلان حجتهم في الآية السابقة وأنها لا تستند على دليل صحيح بين عَزَّوَجَلَّ ما نهى الناس عنه وحرمه عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾:

تفريق الدين والناس شيعا ليس مما جاءت به الأنبياء، ومن تفريق الدين إشغال الناس بدقيق المسائل وغامضها، ومخاصمة المخالف فيها ومفارقته، فالأنبياء جاؤوا بما يجمع الناس لا بما يفرقهم.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

تأمل علاقة هذه الآية بما قبلها فالله يضاعف الحسنات ولا يضاعف السيئات، ومضاعفة أجر الفعل الحسن وعدم مضاعفة السيئات مما يجمع القلوب ويدخل الأُنس عليها.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

هذه حقيقة دعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي حقيقة دعوة كل نبي، وهي دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، توحيد الله وعبادته وهذا هو الصراط المستقيم والدين القيم، وهذا ما يجمع الناس ولا يفرقهم، أما الشرك فليس دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

سورة الأعراف

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

لا يكن في صدرك حرج أو ضيق بسبب ما تضمنه القرآن من أوامر ونواه وأخبار، فما هو إلا نذير للكافرين وذكرى لمن آمن به.

ثلاث سور تحدث الله عَزَّوَجَلَّ في مطلع كل واحدة عن القرآن:

الأولى: البقرة وفيها نفى الله الريب عن كتابه، وبين أنه هدى للمتقين ثم تحدى الناس أن يأتوا بسورة من مثله فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهذا التحدي جاء في سياق نفي الريب عن القرآن، فهو منزل من الله العليم الخبير، وليس مما اقترفه بشر.

والثانية: سورة آل عمران، وفيها بين الله طبيعة كتابه وأنه وحي كالكتب السابقة مصدق لها، فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، ثم بين طريقة التعامل معه وما يجب حياله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ

الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

والثالثة: سورة الأعراف: وبين فيها طبيعة ما في القرآن من أوامر ونواهي وأخبار، وقال: إنها ليست مما يسبب الحرج أو المشقة أو يجلب لهم الضيق، وإنما هو ذكرى ونذارة تستيقظ به القلوب وتحيا به النفوس قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾:

هذا أول ذكر لخبر إبليس مع أبينا آدم بعد سورة البقرة، لم يذكر هنا خبر خلق آدم وإنما بدأ بالحديث عن امتناع إبليس عن السجود ووسوسته لآدم.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾:

ذكر في هذه الآية طبيعة العلاقة بين إبليس وبني آدم وطريقة إبليس في إغوائهم، فهو ينوع أساليب الإغواء ويصرفهم عن شكر نعم الله فيستقلونها، أو يشعرون بالاستغناء فيطغون في الأرض: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

هنا قال مذءوما وفي آيات أخرى ورد مذموما فما الفرق بين المذؤوم والمذموم؟

الذأم هو الذم والعيب، ومدحورا مبعدا عن رحمة الله مع الإهانة، فالذأم هو الطرد مع الإهانة، ولا يكون طردا إلا بإهانة، فالطرد غير الإبعاد لأن الإبعاد لا يلزم منه الإهانة.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾:

هذه طريقة الشيطان في إغراء بني آدم، وأكثر سبل الضلال تأثيرا.

﴿يَا بَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أحد مقاصد الشيطان في إضلال بني آدم نشر العري بينهم، حينما يقرأ المسلم هذه الآية يفهم سمة عامة في الحضارات الوثنية وفي الحضارة الغربية المعاصرة وهي العري.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾:

قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي كما بدأكم أول مرة في الخلق من غير مثال سابق تعودون إليه بالبعث بعد الموت، فهو دليل على ربوبيته سبحانه.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

هذه الآية وما قبلها وما بعدها لها علاقة بمطلع السورة حيث نفى الله أن يكون القرآن سببا للضيق والحرج، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ

حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهنا بين الله عَزَّوَجَلَّ ما أباحه في القرآن ونهى عنه، فهو أباح الطيبات ونهى عن الفواحش والإثم والبغي، والطيبات المباحات ليست مما يسبب الحرج في الصدر، لا من حيث المطعوم وأثره في الجسم، ولا من حيث تبليغها للناس.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

النداء لبني آدم ورد ثلاث مرات في سورة الأعراف، وورد مرة واحدة في سورة يس، ولعله ورد هنا مناسبة لورود خبر أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنداء بنيه منسوبين إليه تكريم له.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

التأويل هنا هو وقوع ما أخبر الله به.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

الطمع أن تدعو الله وأنت تحسن الظن به سبحانه بأنه يستجيب دعاءك.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾:

قاعدة عامة:

هذه الآية في صلاح القلوب وفسادها وتأمل بما ختمها الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، فكأن الشكر هو الأساس في صلاح القلب، والذي به يخرج العمل الصالح، شاكر النعمة وشاكر من أحسن حري به أن يكون أكثر قربا للخير، وأكثر استجابة إليه بل أكثر سبقا إليه.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

أي ليس لكم معبود غيره، فكلمة إله هنا ليس لها إلا معنى واحدٌ فقط وهو معبود.

والذي قيد معنى كلمة إله هو ورودها مع الأمر بعبادة الله سبحانه، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وهذا له دلالتان:

الأولى: أن معنى كلمة الإله المعبود.

والثانية: أن الخلاف بين الرسل وأممهم في عبادة الله، وليس في الإيمان بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾:

لماذا وصفوا هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسفه؟

والجواب: لأنه انتقد نظامهم العقدي وسعى في تغييره.

والنظام الاجتماعي والنظام العقدي مقدسان عندهم، لا يسلمون لمن أراد تغييرهما بسهولة ويسر.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾:

تأمل قوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، فهو يقول إني وإن أنكرت دينكم ودعوتكم إلى سواه فأنا شفيق عليكم، ناصح لكم، أمين فيما بلغتكم، لا أسعى للتسلط عليكم، وليس لي مصلحة خاصة أستأثر بها دونكم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾:

هنا دليل على أنْ ليس للشذوذ الجنسي أصول بيولوجية، وإنما هو انحراف متعلم كأي انحراف يقع من الإنسان، ويصدق هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ومما يتعارض مع التقويم الحسن أن يطبع الله الإنسان في أصل خلقته على نوع من الجرائم أو الأفعال التي حرمتها الشريعة.

والدراسات التي ورد فيها أن للشذوذ أصلا بيولوجيا ينظر إليها الآن على أنها لا تتسم بالضبط العلمي المنهجي، ولهذا تخلى حتى دعاة الشذوذ عن القول بأن له أصلا بيولوجيا.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

والحضارة الغربية الحديثة ليست قائمة على الطهر والفضيلة، بل على الكسب المادي والاستهلاك أيا كان مصدره، وهي تضيق بما سوى ذلك؛ حتى لو كانت الفضيلة، ولا ترى لأصحابها حق الاختيار كما هو لغيرهم ممن آثر الاستهلاك، وصناعة الاستهلاك في الحضارة الغربية تعدت إلى أنواع الرذائل، كالبغاء واستعباد المرأة.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

الذي أنكره شعيب في هذه الآية ليس مخالفات فردية ليس لها صفة العموم، بل أنكر نظاما اقتصاديا قائما على التطفيف، فالنظم الاجتماعية المنحرفة، والسلوك الاجتماعي المنحرف المنظم، والجريمة المعلنة الشائعة في المجتمع بلا نكير هي الموجبة للعقوبة.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾:

تأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، فهذا حديث عن جريمة منظمة تحارب الإيمان والفضيلة.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾:

الملأ هم وجوه العشيرة ورؤوسها وأولو الأمر فيها، قال تعالى عن بلقيس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، ولا يتوقع منها أن تستشير الدهماء، وإنما ذوي الرأي ورؤوس الناس.

والملأ أحد مكونات المجتمع، وكل قرية أو قبيلة أو جماعة فيها ملأ، إما أن يكونوا ملأ خير أو ملأ سوء، ففرعون له ملأ، وسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ له ملأ، قال تعالى عن سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وفي القرآن كثيرا ما ترد كلمة الملأ مقيدة بأنهم الذين كفروا أو الذين استكبروا، ولكنها ليست مقصورة عليهم بدليل ملأ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. ووردت مرة واحدة يراد بها الطائفة من الناس، قال تعالى عن نوح وقومه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾:

كثيرا ما يرد الملأ في القرآن ويراد به أصحاب الرأي، فبلقيس تستشيرهم وتقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، وملك مصر يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

هاتان الآيتان بمثابة القانون العام يبتليهم الله بالشدائد لعلهم يرجعون إليه، فإذا لم يرجعوا فتح الله عليهم الدنيا ثم أخذهم فجأة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

للإيمان والتقوى بركات على أصحابها: على الأفراد والأسر والمجتمعات، تأمل قوله: ﴿أَهْلَ الْقُرَى﴾، فأهل المدينة تصيبهم البركة بسبب ما عندهم من الإيمان والتقوى، ومن البركة تيسير أمورهم وطيب عيشهم وما عندهم من الرخاء وما يصرفه عنهم عَزَّوَجَلَّ من الغناء والضنك والأمراض والضيق في الرزق.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

هاتان الآيتان توضحان لنا كيف يفكر الطاغية، إنه لا يفكر تفكيرا طبيعيا كما يفكر الأسوياء من الناس، ولا ينظر إلى الحوادث نظرة موضوعية، هو يربط الحوادث بذاته وسلطته ولا يعنيه الجانب الموضوعي في الحدث. الأسوياء فهموا الحدث على أنه غلبة الحق وسقوط الباطل ولهذا آمنوا ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أما الطاغية فلا يرى في ذلك انتصار الحق وانكشاف الباطل وإنما يرى فيه أن سلطته انتقصت وذاته مست، ولهذا غضب لما أذعن السحرة للحق وآمنوا بموسى، ورأى في عملهم مؤامرة على سلطانه وخديعة له اشترك فيها موسى والسحرة ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾. وهذا النوع من التفكير جعله يفهم الأشياء والناس على غير حقيقتهم، تأمل قول فرعون: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، هو يريد من السحرة أن يستأذنوه في الإيمان بموسى مع أن الاقتناع لا يحتاج إذنا من أحد، فهو ليس سلوكا اختياريا، وهو يقع من الإنسان حينما تظهر أمامه أدلة لا يستطيع دفعها وتتهاوى معه براهين عقيدته. بل إن الشخص لا يستطيع منع نفسه من الاقتناع، وربما لا يؤمن بعد ظهور الأدلة مع اقتناعه أنه على باطل، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾، ولكنه مقتنع أنه على باطل وأن ما أعرض عنه هو الحق.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾:

تفكير الملأ المحيطين بالطاغية لا يختلف عن طريقة تفكيره.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾:

القائد يجب أن يتصف بالتفاؤل ويبث الفأل في اتباعه.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾:

ذكرت الآية أعظم سببين من أسباب الإعراض عن الحق، وهما:

١- الكبر، حيث يشعر المستكبر أن في قبوله للحق مهانة لنفسه وإنزالا لقيمتها، أو أن اتباعه لما قاله النبي أو الداعية مهانة لنفسه كذلك.

٢- الإجرام وهو اتباع الهوى ويظهر في غياب الضوابط الأخلاقية للسلوك، فصاحبه لا يلتزم بحق وإنما هو متبع لهواه، وقبول الحق يعني الالتزام بضوابط أخلاقية للسلوك، وهؤلاء يشق عليهم ذلك ويأنفون منه، لما اعتادت أنفسهم عليه من اتباع الهوى، والتصرف بما يحقق مراداتهم من غير اعتبار للخُلق.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾:

الانحراف الذي يعيشه بنو إسرائيل انحراف كبير، نفسي واجتماعي وهو انحراف على مستوى الفرد، وانحراف على مستوى الجماعة.

نفسية الأفراد منحرفة وثقافة الجماعة منحرفة، الأفراد متكبرون على نظرائهم ولا يأبهون للآيات الدالة على الحق. ولو ظهر لهم الحق وبان فلا يتبعونه بل يتبعون الغي، والغي أسوأ الباطل وأسوأ الضلال.

قواعد في الدين:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

في الآية أربع قواعد عن طبيعة هذا الدين: قاعدتان في الدين عامة في العبادات والمعاملات، وقاعدة في المباحات، وقاعدة في المحرمات.

١ - ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: هذه قاعدة عامة في الدين كله في العبادات والمعاملات.

٢ -﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾: قاعدة في المباحات، فجميع ما أباحه الله طيب

٣- ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾: قاعدة في المحرمات فجميع ما حرمه الله خبيث.

٤- ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾: هذه قاعدة عامة وهي للعبادة أقرب، فالدين مبني على اليسر والاستطاعة، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وهذه القواعد الأربع تنبئ القارئ أن هذا الدين منضبط بقواعد تحكمه، وهو أيضا يمكن تعقله من خلال إدراك مقاصد الشريعة في تشريعاته، فهو دين العقل.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾:

الفسق من أسباب التعرض للفتنة والابتلاء، فبسبب فسق هؤلاء كانت الحيتان لا تأتيهم إلا يوم السبت يوم تفرغهم للعبادة.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

أولى غايات الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر براءة الذمة، والمعذرة إلى الله، وإقامة الحجة، ثم يأتي بعدها الرغبة في هداية المدعوين، ومقترفي المنكر، ولذلك الداعية والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يفعل ذلك لبراءة ذمته ولنجاته من عقوبة كاتم العلم، والساكت عن المنكر، وإقامة الحجة على من دعاه أو أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾:

هذه الآية تبين عمل العقل أو القلب والحواس في تحصيل المعرفة: اكتساب المعرفة الجديدة يأتي عن طريق الحواس: البصر والسمع، أما القلب فهو يحاول أن يفقه المحسوسات الجديدة، والفقه هو إعادة تكييف للمعرفة ربما بوضع قواعد جديدة واكتشاف علاقات جديدة واشتقاق مفاهيم جديدة ومنحها أسماء ومصطلحات جديدة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾:

هذه سنة من سنن الله فيمن يكذب بآياته من الأفراد والجماعات والأمم، فأعمال المكذبين هي التي تقودهم إلى الهلاك في الدنيا، فهم يسعون في دمار أعمالهم وأنفسهم من حيث لا يعلمون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾:

هذا حديث عن الأصنام.

سُورَةُ الأنفَالِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

في هذه السورة تنظيم الحرب مع المحاربين وإدارة المعركة معهم، والعلاقات بين المؤمنين والكافرين المحاربين أو طبيعة التفاعل بينهم.

وتتحدث عن الصف المسلم ومن فيه من المنافقين وعن قوة الجيش المادية ومتى يجب عليه خوض المعركة.

اختلف الصحابة رضوان الله عنهم في الأنفال وكل يدعي أن له فيها حقا، فأخبرهم الله في هذه الآية بأن الانفال حق لله ورسوله وليست حقا لهم، ثم أمرهم بثلاثة أمور يجب عليهم فعلها إن كانوا مؤمنين، ثم بين في الآيات الثلاث التي بعد هذه الآية حقيقة المؤمنين.

أما الأمور الثلاثة التي طلبها الله منهم فهي:

١. تقوى الله.

٢. وإصلاح ذات البين.

٣. وطاعة الله ورسوله.

فهي تجاوز لحظوظ النفس ومطامعها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾:

تأمل صفات المؤمنين المذكورة هنا وعلاقتها بالأنفال: المؤمنون معظمون الله وقلوبهم توجل وتخاف إذا ذكر سبحانه، وإذا تليت عليهم آيات القرآن ازدادوا إيمانا، ثم هم متوكلون على الله في رزقهم وشأنهم كله، وهم أيضا مقيمون للصلاة أي يصلون بخشوع، وينفقون مما رزقهم الله، وليسوا ممن يكنزون الأموال.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾:

هذا هو الغاية من معركة بدر: إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين، وهو غاية الجهاد دائما: نصرة للحق وردع للباطل، وليس جمع الغنائم واكتناز الأموال.

في قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ دليل على أن بعض الأعمال التعبدية قد تكون ثقيلة على النفس ومخالفة لهواها، فالنفوس تحتاج إلى مجاهدة لتألفها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾:

هذا توجيه في كيفية إدارة المعركة:

دخول المعركة ليس عبثا يدخلها المرء متى شاء وينصرف منها متى شاء، والذين يدخلون المعركة ثم ينسحبون منها -أي يتولون يوم الزحف- ارتكبوا عملا فظيعا مدمرا لعملهم الصالح، وعدّ الشارع هذا العمل واحدة من أعظم سبع موبقات في الشريعة الإسلامية، أولها الشرك بالله.

وخير من دخول المعركة ثم التولي عنها عدم دخولها، فمن علم من نفسه أنه لا يستطيع الثبات فعليه ألا يدخل المعركة أصلا.

وهذا التشديد من الانسحاب من المعركة ليس خاصا بالشريعة الإسلامية، فالنظم الوضعية تصنفه من الخيانة العظمى وعقوبته الإعدام فورا.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

حددت الآية حالات التولي المقبولة عن المعركة: أن يتولى متحرفا لقتال، فالتولي خطة حربية أو تكتيك من أجل معاودة القتال، أو يتولى منحازا لفئة أخرى من أجل معاودة القتال، وما سوى ذلك فهو جرم كبير ومن موبقات الأعمال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾:

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو القتال في سبيل الله ففيه حياة الأمة، وهذا هو ما يقتضيه سياق الآيات.

﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يكون في أمرين:

الأول: أن لا يقبل القلب الحق مع ظهوره له، وبينه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، ومن آثاره أن القلب لا ينشط للحق ولا يقبله ولا يقبل عليه كراهية له مع علمه أنه الحق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

والثاني: ألا يعرف القلب الحق مع ظهور أماراته لطالبيه، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

فالأول يتعلق بالمشاعر ومحبة الحق وقبوله، فهم يعرفون الحق ولكن قلوبهم لا تقبله، والثاني يتعلق بمعرفته.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾:

قال بعض العلماء: إن ترك الجهاد سبب في إصابة الأمة بالفتن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾:

تكون عليهم حسرة لأنه لم يتحقق ما يسعون إليه، ثم تحل بهم الهزيمة والبوار وبعدها موعدهم جهنم والعياذ بالله.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

أحد غايات حرب الكفار للمؤمنين تمييز الخبيث من الطيب، والتمييز بأمرين: أن يظهر للناس مَنْ الطيب ومن الخبيث، وأن يجتمع الخبثاء مع بعضهم ويجتمع الطيبون مع بعضهم فتتميز الصفوف.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

الدين هنا النظام أو الحاكمية والتشريع، وليس القصد هو ما يدين به الأفراد ويعتقدونه، لأن الشرع لم يأت بإكراه غير المسلم على الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

هذا جواب سؤالهم عن الأنفال الوارد في أول السورة في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

لعل مما يستفاد من الآية حفظ الروح المعنوية للجيش وعدم الحديث عن قوة العدو واستعداداته عند الجنود.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ذكر الله من أسباب ثبات القلب والفلاح في الدنيا والآخرة.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ﴾ أي تجدهم في الحرب، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي نكل بهم غيرهم، ليكونوا بما أصابهم من العقوبة عبرة لغيرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ إشارة إلى جواز أن تعقد الدولة المسلمة العهود والمواثيق مع دولة كافرة رعاية لحقوق المسلمين، ودفعا للأذى عنهم، ولا سيما إذا كان فيها نشر للدعوة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾:

إذا قصر المؤمنون في ولاء بعضهم بعضا وبراءتهم من الكفار وقع في الأرض فتنة، فاختلط الحق بالباطل وفساد كبير بسيطرة الكفار على المؤمنين.

سُورَةُ التَّوبَةِ

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

سورة الأنفال كانت عن غزوة بدر، وهذه السورة عن فتح مكة، وبين الفترتين نشأة الدولة الإسلامية وانتصارها وبلاغ الرسالة للعالمين.

هذه السورة تناولت العهود التي عقدها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المشركين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾:

موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين شأنها عظيم، وبها أوجب الله النصرة، ولا معنى للموالاة من غير نصرة، وهي ظاهرة في الآيات الأولى من هذه السورة وفي آخر سورة الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

والعهود بين المؤمنين والكافرين واجبة الاحترام، وهي مقدمة على حق النصرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

عهود الصلح مع فئة كافرة أو عهود فيها مصلحة للمسلمين يجب على الدولة المسلمة الوفاء بها وتقديمها على مصالح أفراد أو جماعات مخصوصة.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

تلاوة القرآن على الكفار ليسمعوه من أعظم مقاصد الدعوة ووسائلها، وثبت من الواقع أن أعظم ما يؤثر في الكفار ويهتدون به هو القرآن حينما يسمعونه أو يقرؤونه أو يقرؤون معانيه مترجمة إلى لسانهم.

مجيء هذه الآية بعد الآية السابقة التي يقول الله فيها: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يفيد أن الأمر بالقتل ليس عاما في كل مشرك، وأن القتل ليست علته الكفر، ولو كانت علة القتل الكفر أو لو كان القتل عاما لكل مشرك لما أمر الله بإجارة المشرك المستجير ولأمر بقتله.

في الآية دليل على جواز منح اللجوء السياسي للكافر وإجارته حتى يبلغ مأمنه.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾:

تأمل هذه الآيات فجميعها تحذر من أن المشركين ناقضون للعهد، وأنهم لو ظهروا على المؤمنين فلن يبقوا عليهم، فهم لا يرقبون فيهم إلاً (أي قرابة) ولا ذمة (عهد).

ومع ما ذكره الله عن المشركين من نقضهم للعهد وحقدهم على المسلمين وكذبهم إلا أنه أمر المسلمين بالوفاء بالعهد، والاستقامة على العهد ما داموا مستقيمين عليه، وأما ما ذكره عن المشركين من نقض العهد فهي معلومات للحذر من مكرهم لا لنقض العهود معهم.

وهذه الآيات هي تنظيم للعلاقات الخارجية والعقود بين دولة المسلمين والدول الكافرة.

وتأمل غاية القتال ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ وليس حتى يسلموا أو حتى تفنوهم فلا إكراه في الدين ولا استئصال للكفار.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

سقاية الحاج وعمارة المسجد عمل صالح نفعه متعد، ولكنه لا يوازن بالإيمان بالله واليوم الآخر، وفي هذا رد على أولئك الذين يقومون بالموازنات بين عوام المؤمنين وبعض مشهوري الكفار ممن اخترع اختراعًا أو برع في عمل نفع الله به البشرية على يديه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ إنهم لا يستوون عند الله فالإيمان بالله شأنه عظيم والكفر بالله جريمة عظيمة يحبط معها في يوم الجزاء الأخروي كل عمل صالح، وأما الجزاء في الدنيا على عمله الحسن فيناله وفقا لقوانين الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

لما منع الله عَزَّوَجَلَّ المشركين من المسجد الحرام خشي بعض المسلمين أن تتأثر مكاسبهم وتجاراتهم لأنها معتمدة على قدوم المشركين إلى المسجد الحرام، وما يحتاجونه في سفرهم من مؤنة وما يجلبونه معهم من بضائع، فلما كان هذا شعورهم طمأنهم الله سبحانه وأخبرهم أن الرزق منه وليس من غيره فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾.

راعت الآية الحالة النفسية المترتبة على التشريع الجديد وهي خوف الفقر والعوز (أو العيلة) كما عالجت الآية الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي يعيشه المسلمون قبل التشريع وبعد التشريع.

فمع التشريع الجديد لا بد أن يعيد المسلمون ترتيب تجاراتهم وأعمالهم بما يحقق طهارة البيت من المشركين واستعادة هويته الإسلامية التوحيدية، واستقلال نظامهم الاقتصادي من اعتماده على المشركين.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾:

هذه صورة من صور تحديث الدين والاجتهاد فيه التي يطالب بها أهل الحداثة، بل أن ما عمله أهل الجاهلية أفضل مما يطالب به أهل الحداثة فأهل الجاهلية حافظوا على الصورة، ولكنهم غيروا في الوقت فقدموا أو أخروا في الأشهر المحرمة بما يتفق مع حاجتهم.

أما أهل الحداثة فدعوتهم تتضمن تعطيل الشريعة والعبادات بحجة موافقة مقتضيات العصر، كمن يدعو إلى المساواة في الميراث أو إلغاء قوامة الرجل على المرأة.

الله سبحانه وصف عمل أهل الجاهلية بأنه زيادة في الكفر وضلال.

وفي الآية أيضا رد على دعاة المقاصد الذين يقولون: «ينبغي لنا أن نراعي مقاصد الشريعة». ويهملون الأحكام الفرعية والصور العملية، بحجة أنها غير مهمة والمهم في نظرهم مقصد الشارع، فالشارع مثلا شرع الحدود لمنع الجريمة ويرى هؤلاء المفتونون أنه يمكن أن نغير بعض العقوبات بما يتناسب مع العصر ونحدث عقوبات أخرى تدرأ الجريمة، هذا العمل أيضا زيادة في الكفر كما أخبر الله سبحانه.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

هذا مما خص الله به أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فخصه الله بذكر صحبته لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القرآن، وخصه بأن الله معه ومع رسوله بنصره وتأييده.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾:

من أخبث أعمال المنافقين الاحتجاج بمبادئ أخلاقية معظّمة وهم في الواقع لا يقصدونها ولا يعظمونها، وإنما لإحراج المؤمنين والهروب من المسؤولية أو نصرة للباطل.

عدَّد الله في هذه السورة أصناف المنافقين، وهذا الصنف **الأول**: الأخلاقيون أو مدعو الأخلاق.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾:

في قوله: ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ كرر حرف الجر الباء، ولعل من فائدة التكرار تنوع الكفر عندهم، فعندهم كفر بالألوهية وكفر بالنبوة.

المنافقون لا ينشطون للعبادات الظاهرة، أما عبادات السر فليس لهم فيها نصيب لأنهم لا يؤمنون بها. هنا أخبرنا أنهم لا يأتون صلاة الجماعة إلا وهم كسالى، فهم يصلون كي لا يفتضح أمرهم ويعلم نفاقهم، وهم ربما أنفقوا أمام الناس لدرء تهمة

النفاق عنهم، وليس لوجه الله عَزَّوَجَلَّ. ومن صفات المنافقين الثابتة التي أخبرنا الله بها في هذه السورة أنهم يقبضون أيديهم فلا ينفقون في سبيل الله، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾:

ادعاءات المنافقين كبيرة وهم يؤكدونها بالإيمان المغلظة فيحلفون كاذبين لتأكيد صدق دعواهم، هنا يحلفون أنهم من المؤمنين وفي سورة المنافقون ورد أنهم يشهدون أن الرسول حق: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

هذه الشهادة المتكررة والأيمان المغلظة سببها ما أبطنوه من التكذيب، ويخشون أن يطلع المؤمنون على ما في قلوبهم فيسترون هذا الكذب بأيمانهم الكاذبة وشهاداتهم الزائفة.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾:

الجبن إحدى صفات المنافقين الثابتة، أنهم يخشون المواجهة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾:

هذا نوع آخر من المنافقين (مصلحيون)، ليسوا أصحاب مبدأ ولا تعنيهم المبادئ، همهم مصلحتهم الخاصة، فيرضون إذا أُعطوا ويسخطون إذا مُنعوا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾:

أعظم العطاء عطاء الله سبحانه فلا حدود لفضله وجزيل عطائه عَزَّوَجَلَّ، وهنيئا لأولئك الذين يبتغون بأعمالهم وجه الله سبحانه.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

هذا صنف ثالث من المنافقين وهم اللمازون العيابون. وهؤلاء متكبرون يتظاهرون بالكمال ويعيبون الآخرين. وهم بهذا اللمز يمارسون الاغتيال المعنوي للشخصيات العامة، وربما كان اغتيال الشخصيات العامة بالتشكيك فيها وعيبها ولمزها والتشكيك في مقاصدها أيسر من دحض فكرها وما تدعو إليه.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾:

هذه إحدى وسائل المنافقين في ستر كيدهم للمؤمنين: نحن لا نقصد السخرية بالدين ولا إفساد القيم، وإنما عملنا ترويح أو هو الفن والأدب.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾:

هنا

١- يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

٢- يقبضون أيديهم عن الإنفاق على المحتاج.

وتبين الآية أن من هذا صفته قد نسي الله فنسيه الله.

أيضا تذكر الآية أن المنافقين يتآزرون ويناصر بعضهم بعضا، فهم صف منظم والغاية من هذا كله الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

في هذه الآية يوضح الله صورة المؤمنين وهي المقابلة لصورة المنافقين التي بينها في آية سابقة: المؤمنون بعضهم أولياء بعض، ولاؤهم لجماعة المؤمنين، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الشعائر الظاهرة فيقيمون الصلاة، وينفقون على المحتاج ويدفعون الزكاة، وقاعدتهم العامة أو مبدأهم العام أنهم يطيعون الله ورسوله.

ولاء المؤمنين بعضهم بعضا ليس عصبية جاهلية، وإنما هو ولاء راشد ناضج يدل على الصواب ويصحح الخطأ والانحراف، فهم يتناصحون فيما بينهم، ويأمرون فيما بينهم بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

هذا نوع رابع من المنافقين، وهم أصحاب الوعود الكاذبة، أو المحتجون بالقدر على ضعف جهادهم ونفقاتهم.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

تأمل كيف تعامل الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع المتخلفين عن غزوة تبوك، فهذه الحادثة قد تحدث شرخا في المجتمع إذا فقدت التعامل الحكيم، من خلال سياق الآيات يبدو أن المجتمع أربع مجموعات:

١. الذين خرجوا إلى غزوة تبوك وهم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته الذين معه من مهاجرين وأنصار.

٢. الذين تخلفوا، وهم أهل صدق، وهم الثلاثة الذين خلفوا.

٣. الأعراب الذين تخلفوا، وهم من ضعاف الإيمان وليسوا منافقين.

٤. المنافقون الذين تخلفوا.

الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل اعتذار المعتذرين ووكل سرائرهم إلى الله ولم يسمح لأحد من المجتمع أن يحاكمهم أو يثرب عليهم، وانتهى هذا الحدث عن هذا الحد فلم يكن له تأثير على النسيج الاجتماعي أو وحدة المجتمع، أما الذين اعترفوا بتخلفهم وهم الثلاثة فقط فعاقبهم وانتظر حكم الله فيهم حتى نزلت براءتهم، وهؤلاء الثلاثة أهل صدق فلن يقودوا تمردا داخل المجتمع ولن يحدثوا انشقاقا، وهم ثلاثة أشخاص فقط.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾:

حينما يكون هم الشخص كسب رضا الناس ويقدم ذلك على رضا الله سبحانه -حينما يفعل ذلك- ففيه خصلة من خصال المنافقين.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾:

سبحان الله! أخبر سبحانه أن المنافقين في الأعراب خارج المدينة، وأنهم أيضا بعض سكان المدينة وأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلمهم، ومع ذلك لم يأمر بتتبعهم واختبار الناس ليتضح المنافق من غير المنافق، ولم يأمر بمعاقبتهم، بل أخبر أنه عَزَّوَجَلَّ هو من سيتولى عقابهم يوم القيامة ذلك لأن طمأنينة المجتمع وأمن الناس أمر عظيم لا ينبغي الإخلال به.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

التشابه في بعض الأفعال عند البعض يجعل دائرة النفاق واسعة فيدخل فيهم من ليس منهم، فهؤلاء خلطوا عملا صالحا بعمل سيئ، فربما عدهم بعض المؤمنين من المنافقين، الآية تنبه إلى ذلك وتبين أنهم ممن يمكن أن يغفر الله لهم.

ومن هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا، فهم شابهوا المنافقين في التخلف عن المعركة، ولكنهم خالفوهم بما وقر في قلوبهم من الإيمان، ولهذا أقروا بخطئهم، واعترفوا بذنبهم، وسألوا الله المغفرة. ويستفاد من هذه الآية الحذر من التعميم حتى وإن تشابهت الفعال في بعض جوانبها.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

من أعظم ما يزكي النفوس ويطهرها من آثامها ويباعدها عن النفاق الصدقة في سبيل الله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾:

ما أجمل هذا التعبير عن الصدقة!: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾، تعظيم لها وتكريم للمتصدق.

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

وهذا صنف آخر ممن قد يشتبه بالمنافقين، فيظن أنه منهم، وما هو منهم.

وهؤلاء طائفة تخلفت عن غزوة تبوك، ومنهم الثلاثة الذين خلفوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

بنص هذه الآية كل من قاتل في سبيل الله مقبلا غير مدبر يريد وجه الله وقُتل فهو في الجنة.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

هل هذه الصفات المتنوعة ينبغي أن تجتمع في شخص واحد أم هي دليل على تنوع أعمال الخير وتنوع المؤمنين؟

ورد في السنة أنها أعمال خير متنوعة، وكل مسلم يصيب منها ما يستطيع، وورد أن أبا بكر ممن تجتمع فيه هذه الخصال.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، فقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١).

وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»(٢).

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ تزكية للثلاثة الذين خلفوا، وشهادة لهم بالإيمان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾:

أعظم درس من قصة الثلاثة الذين خلفوا هو أن يجتهد العبد في التقوى، وأن يكون مع الصادقين، فيتصف بالصدق مثلهم ويصحبهم. والتقوى صفة ذاتية وصحبة

---

(١) «صحيح مسلم» (١٠٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٩٧).

الصالحين هي المجتمع المناسب لنشأة الصفات الحسنة، وبين الاثنين تلازم وثيق، فمن أراد أن يتصف بالتقوى فعليه أن يصحب الصادقين ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾:

هذه الآية توجه للتخصص في أعمال الخير.

سورة يونس

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾:

هذه الآية حددت موضوع السورة، وهو الرسالة والرسول والمرسل إليهم، وأول قضية ذكرت هي إرسال رسول من الناس فهذا من الأمر العجيب بل المستحيل عند بعض مشركي العرب.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

هنا يذكر الله سبحانه أن الذي خلق الخلق ورزقهم وخلق السماوات والأرض هو الرب المعبود ولا رب سواه، ومناسبتها لما قبلها أن من يرسل الرسل هو الذي خلق الخلق ويرزقهم سبحانه، وتناولت الآية ما به يستحق الله عَزَّوَجَلَّ أن يعبد فهو المدبر في ملكه، فلا أحد غيره يقلب الليل والنهار، ويحيي ويميت، ويمنح ويمنع

سبحانه، هو المتصرف في الكون وحده، وأشارت الآية إلى بطلان ما يعبدونه من آلهة ويقولون عنها أنها شفعاء لهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: إنه لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، والله لم يأذن لهؤلاء بالشفاعة. وهذا الموضوع تناولته أكثر من آية في هذه السورة.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾:

وهو سبحانه إليه المرجع وسوف يحاسب الجميع، فيجزي كلا بعمله، فمن عدله ورحمته بخلقه أن يرسل رسلا للناس، ووجود حساب وجزاء على الأعمال يقتضي إرسال رسل يدلون الناس على ما يحسن فعله، ويحذرونهم ما يقبح فعله.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

فرق الله بين ضوء الشمس ونور القمر، فما الفرق بين النور والضياء، لعله يوضحه ما ذكره الله في سورة الفرقان: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾، وفي سورة النبأ وصف السراج بأنه وهاج، فقال: ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، وفي سورة نوح ذكر أن السراج هو الشمس، والقمر وصفه بالإنارة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

السراج المتوهج، فيه حرارة، ونوره ذاتي.

أما المنير فلا يلزم أن يكون نوره ذاتيا وإذا لم يكن ذاتيا فليس فيه توهج.

هذه الآية تذكر صفة من صفات الإله المستحق للعبادة فهو سبحانه من وضع السنن الحاكمة لهذا الكون، وهو سبحانه من دبره، وجعله ملائما للخلق على تعدد أصنافهم وحاجاتهم، فهو المستحق للعبادة.

مواءمة الأرض والسموات أو الطبيعة للأحياء تكررت في كثير من الآيات، وهي تختلف عما تطرحه نظرية النشوء والارتقاء فالنظرية وغيرها ممن بحث في هذا الموضوع يتحدث عن تكيف الأحياء مع الطبيعة، وما ورد في كتاب الله يذكر مواءمة الطبيعة للأحياء ووفاءها بحاجة المخلوقات قبل أن يخلق الله الخلق، ولولا ذلك لما عاشت الأحياء واستقرت في الأرض، فسبحان العليم الحكيم الذي خلق كل شيء بقدر. ومواءمة الطبيعة للأحياء لا يكون إلا إذا كان من خلق الطبيعة يعلم بمن سوف يعيش عليها فهيأها لهم قبل أن يخلقهم، أما تكيف الأحياء مع الطبيعة فهو نوع من التعلم والمران تتهيأ به أعضاء المخلوقات للبيئة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۞ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

المرسل إليهم فريقان:

١- فريق رفض الرسالة، وهو المذكور هنا.

٢- وفريق قبل الرسالة، وهو المذكور في الآية التي بعدها.

والفريق الذي رفض الرسالة هم أناس لا يظنون أنهم مبعوثون بعد الموت وركنوا إلى الحياة الدنيا، فهم متبعون لشهواتهم، وهم أيضا لا يتعظون بما يجري أمامهم من آيات وعظات.

فالحياة ليست مادة فقط وليست محصورة بالحياة الدنيا، فهؤلاء رضوا بالحياة الدنيا فلا يريدون سواها، وهم واثقون من عملهم وتدبيرهم فيها مطمئنون إليها، وهم غافلون عما يأتيهم من مواعظ وآيات هادية من الله، إن هؤلاء مأواهم النار ومصيرهم الهلاك الدنيوي والأخروي بما كانوا يكسبون، أي أن تخطيطهم وتدبيرهم في حياتهم الدنيا سبب رئيس في هلاكهم.

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ولهذا تعلم أن مناهج التعليم لا ينبغي أن تكون مقتصرة على التعامل مع الحياة الدنيا فقط، بل يجب أن تتضمن ما يرشد الناس ويهيئهم للدار الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾:

هذا الفريق الذي قبل الرسالة وأخص خصائصهم هي عمل الصالحات والإيمان بالغيب: عندهم توازن ذهني وتوازن نفسي وتوازن سلوكي. والتوازن يظهر في العلاقة بين إيمانهم بالغيب وأعمالهم الظاهرة فهي نابعة من إيمانهم بالغيب.

هذه الصورة الأخرى المقابلة للصورة الأولى المذكورة في الآيتين السابقتين.

محيط هؤلاء ليس محصورا بالمادة ولا الحياة الدنيا فهم يؤمنون بالغيب، ومن الغيب الحياة الآخرة، وهذا له أثر على عملهم فهم يعملون الصالحات التي يرجون ثوابها في الآجل والعاجل، وإيمانهم سبب عظيم في هدايتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

العلاقة بين الخالق عَزَّوَجَلَّ والخلق مستمرة، ولا تنتهي بمجرد الخلق، فالكون كله وما فيه محتاجون إليه يرفعون أكفهم إليه سبحانه، يسألونه دفع الضر وقضاء الحاجات، وكما أن حاجتهم المادية قائمة ظاهرة كذلك حاجتهم إليه في دينهم ظاهرة بل هي أشد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾:

هذه الآية تفسر قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فالناس في الأرض خلائف أي يخلف بعضهم بعضا، كلما انتهى جيل أو أمة خلفه جيل أو أمة أخرى، وليس المعنى أن الإنسان خليفة عن الله في الأرض، والله هو الخليفة عن كل أحد فهو سبحانه حاضر لا يغيب، وهو سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

الرسول مبلغ عن الله سبحانه، لا يتحدث إلى من أرسل إليهم من تلقاء نفسه.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

ورد في السنة أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل لما بلغ أربعين سنة، وكذلك الأنبياء لا يرسلهم الله إلا بعد بلوغ الأربعين، وسن الأربعين هو سن النضج واكتمال العقل، ومن لم يدع النبوة قبل الأربعين في مرحلة الشباب والمغامرة فلن يدعيها إذا بلغ الأربعين ونضج عقله وأصبح أكثر بصيرة بالعواقب.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾:

الفلاح منه فلاح دنيوي: نصر في الحياة الدنيا، والآية تتضمن قرينة على صدق الرسول، وهي نجاحه في دعوته وانتصاره وبقاء دعوته من بعده، كما تتضمن الإشارة إلى أن الكذَبة مدعي النبوة يفضحهم الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يفلحون، وهذا المعنى جاء مصرحًا به في موضع آخر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

بعض مشركي المسلمين ومن يدافع عنهم يقولون: إن هؤلاء يعبدون الله فهو المعبود الأعظم سبحانه وأما من يدعونهم من الأولياء فهم وسائط وشفعاء، الله سبحانه سمى دعاء الوسائط عبادة.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾:

تأمل هذه الآية فلعلها قانون عام ويفسره آيات أخرى من مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ ويفسرها الآيتان اللتان بعدها.

وسبب الانحراف والله أعلم طول الأمد ونسيان فضل الله عليهم فيظنون أن ما بهم من نعمة إنما هي من عند أنفسهم، فيظنون أن قوتهم وعزهم ذاتي، ليس من خارج أنفسهم وليس منحة من الله منحها إياهم، فويل لهم ثم ويل لهم حينما يقعون في هذا الشَرَك، فإن الله يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾:

فزيلنا بينهم: فرقنا بينهم.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾:

تكرر في القرآن وصف الإله الحق بأنه من يهدي إلى الحق، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، وقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾.

وورد في آيات أخرى بأن الإله هو من ينفع عابديه، ويشفيهم إذا مرضوا، ويطعمهم إذا جاعوا، ويجيب دعاءهم إذا احتاجوا، وهذا من البدهيات فهذه أمور مادية

يراها الناس، أما الهداية فليست كذلك فربما غفل عنها بعض الناس، ولهذا والله أعلم تكرر التأكيد عليها في كتاب الله وبيان أنها مما اختص الله به، فلا شيء مما يعبده الناس يهديهم أو يرسل رسلا وينزل معهم شرائع لهدايتهم.

والهداية نوعان: هداية البيان والإيضاح، وهذه تتحقق بإرسال الرسل وإنزال الشرائع، وهداية قبول. وكلتا الهدايتين مقصودتان في الآية والله أعلم: فلا أحد يرسل الرسل إلى الناس غير الله سبحانه، وهذا من رحمته بهم، وهو سبحانه من فطر الناس على الخير والهدى، وهذه الهداية المودعة في كل شخص هي داعي الفطرة في قلب العبد الذي يدفعه إلى البحث عن الإيمان فيطمئن إذا وجده وآمن، وينفر من الباطل والكفر.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾:

لما كان موضوع السورة الرسل والرسالة ناسب أن يذكر عَزَّوَجَلَّ الدلائل وما يتبعه الناس، فذكر أن منها حقا وهو ما جاءت به الرسل، ومنها ظنون وأوهام لا تهدي إلى الحق.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

لما ذكر ما يدل على الحق بين حقيقة القرآن فذكر أنه لا يمكن أن يفتريه بشر، بل هو منزل من عند الله سبحانه ويصدق ذلك أن القرآن مصدق لما سبقه من الكتب، ومفصل لما أجمل فيها، وأنه لا ريب فيه. وهذه معايير أو محكات موضوعية يستطيع الناس اختبارها لمعرفة صدق الرسول وصحة القرآن.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

هذه حجتهم في التكذيب بالقرآن، فهم يقولون: إن محمدا افتراه، والله سبحانه يلفت انتباههم إلى أن هذا القول المرسل يمكن اختباره اختبارا موضوعيا، فإما أن يثبت ادعاؤهم أو يسقط، يقول عَزَّوَجَلَّ إن كان محمد افتراه فهو بشر مثلكم فأتوا بسورة مثل الذي افتراه محمد واستعينوا بمن شئتم، وإذْ لم يستطيعوا ذلك فليعلموا أنه منزل من عند الله سبحانه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾:

هنا يبين الله نوعا من أخطاء التفكير وهو أيضا من الأخطاء المنهجية التي يقع فيها البعض، فهؤلاء كذبوا بما عجزت عقولهم عن إدراكه، وهذا خطأ منهم، لأن الإنسان يكذب بما هو واثق من بطلانه، أما ما عجز عن إدراكه فيكله إلى عالمه.

وقالوا قديما عدم العلم ليس علما بالعدم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

هنا وصف الله الرسالة والقرآن لثلاث صفات، الأولى هي الوعظ والترغيب في الخير والترهيب من الشر، والثانية هي جلاء الشبهات، والثالثة بيان طريق الهدى.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

ينبغي أن يكون فرح العبد بالرسالة وبالقرآن أعظم من كل نعمة مادية يسعى الإنسان في جمعها وتثميرها.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾:

فيها تعريف بأولياء الله عَزَّوَجَلَّ فهم الذين آمنوا بالغيب وكانوا يتقون.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

لهم البشرى عند الموت وفي الآخرة عند الحساب.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾:

هنا قانون على وجود الخالق سبحانه، فهو سبحانه جعل الطبيعة في الأرض ملائمة لسكنى الإنسان، فوجود المخلوقات بما فيها الإنسان في الأرض ليس عشوائيا، وإنما هو بتقدير العليم الخبير سبحانه.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

من حاجات الإنسان أن يكون له ولد، وكل أحد يجد هذه الحاجة في نفسه، ولهذا يفرح إذا ولد له، ويحزن إذا تأخر عنه الولد، فهذه طبيعة البشر، أما الخالق سبحانه فهو

غني عن الولد، ونسبة الولد إليه عَزَّوَجَلَّ صفة نقص يتنزه عنها، ولهذا رد سبحانه على من زعم أن له ولدا بأنه هو الغني الذي لا أحد أغنى منه، ونزه نفسه عن ذلك، أما الإنسان فنسبة الولد إليه صفة كمال تسد خلته، وترفأ عجزه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾:

عدم طلب الأجر من المدعوين تكرر في دعوة الأنبياء، فما من نبي إلا أخبر قومه أنه لا يأخذ أجرا على دعوته من قومه، وأن أجره على الله عَزَّوَجَلَّ وحده. وكذلك الدعاة إلى دين الله ينبغي أن يتنزهوا عن أخذ أجر على دعوتهم الناس إلى دين الله.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾:

هاتان أكبر حجتين يحتج بهما أهل الباطل على الأنبياء، وعلى أتباعهم من الدعاة:

الأولى: طعن في الدعوة واتهام لها بإثارة الفتنة والفساد، لأنها تدعو إلى ترك ما عليه الآباء والأجداد.

والثانية: تشكيك في الدعاة واتهام لهم في نياتهم بأنهم يتخذون من الدعوة وسيلة للرياسة والعلو في الأرض.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾:

هذه قاعدة عامة في الحياة كلها، الله سبحانه لا يصلح عمل من يفسد، فالعمل الفاسد لا بد أن تكون ثماره فاسدة، والفساد وصف يطلق على عدم مراعاة قواعد

نجاح العمل الذاتية، فيخل بالمقدمات الضرورية له فتفسد تبعا لذلك النتائج، أو يخل بعمليات التنفيذ، ويطلق أيضا على ما يعرض لنية صاحبه التي هي شرط لصحة العمل، وإذا فسدت النية فسد العمل.

تأمل قوله عمل المفسدين ولم يقل العمل الفاسد.

فالمفسدون عملهم في بوار، حتى لو جودوا عملهم، واجتهدوا في التخطيط له وضبط مقدماته.

وقد يكون الشخص من المفسدين وهو لا يشعر كما أخبرنا الله عن المنافقين فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾. فهم يعلمون أعمالا يظنون أنفسهم مصلحون فيها ولكنها تنتهي بهم إلى الفساد.

وهذا النوع من الفساد يقع حينما لا ينضبط العمل بمعيار الشرع.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

البشارة بالنصر وزوال الظلم جاءت في وقت ظهور الباطل وخوف المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

العلم من أسباب الهداية، ولكن هؤلاء كان علمهم من أسباب اختلافهم وضلالهم، وسبب ذلك أنه لم يكن قصدهم من العلم طلب الحق والوصول إليه، وإنما العلو على مخالفيهم والبغي عليهم، ولهذا كانوا أهل جدل بالباطل بقصد الغلبة لا لكشف الحق وظهوره. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾:

بعض من فتن بالحرية يحتج بهذه الآية على حرية الردة والكفر وليس فيها في الحقيقة دليل لهم.

هناك فرق بين إكراه الكافر الأصلي على الإيمان وبين ارتكاب جناية الردة. حينما يسلم الكافر تلزمه أحكام الإسلام فإذا ارتكب جناية مخالفة لهذا الدين فإنه معرض للعقوبة، فلو شرب المسلم الخمر مثلا يعاقب، أما لو شربها كافر فلا يعاقب لأنها مباحة في دينه، وكذلك لو ارتد عن الإسلام يعاقب، لأنه أعلن الالتزام به، أما الكافر الأصلي فلا يكره على الإسلام.

سُورَةُ هُودٍ

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

تكرر في القرآن أن المرجع إلى الله أحد عشرة مرة، والمقصود به أنه سبحانه هو من سوف يحاسب عباده ويجازيهم على أعمالهم ثوابا أو عقابا، وهذا المعنى تكرر كثيرا أيضا في الحديث عن اليوم الآخر ويوم القيامة والساعة، والجزاء الأخروي يقتضي وجود أنبياء ورسل سبقوا إلى الناس يعلمونهم عن حقوق ربهم وما يجب له، ويحذرونهم مخالفة أمره سبحانه، فهذا من تمام عدله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾:

طبيعة نعيم الدنيا وبؤسها، اضطراب الانفعالات الشديد بسبب تغيرات في البيئة المحيطة (أو تغير القدر) فينتقل الإنسان إلى اليأس أو إلى الفخر والفرح الشديد لا يدفعه إلا عمل الصالحات، وعمل الصالحات ليست العبادات المقدرة، بل هي

شاملة لجميع صور الإحسان إلى الخلق، وتعظيم الخالق سبحانه في السر والعلن، فهي تشمل العبادات وغيرها، أي أن عمل الصالحات أسلوب حياة. وهؤلاء الذين اتسمت حياتهم بعمل الصالحات أكثر استقرارا عاطفيا، وأقدر على تحمل تغيرات الحياة وتقلباتها، ومن هذا شأنه لا بد أيضا أن يجاهد نفسه على الصبر، وورد في السنة: «وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»[1].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾:

ربما ضغطت الجاهلية على الدعوة بتعظيم بعض القيم الفاسدة وتبخيس بعض قيم الحق، فضاق بذلك صدر الداعية، وتمنى لو تخلى عن بعض ما عنده من الحق، وقبل بعض قيم الجاهلية مسايرة لها، هذا الشعور هو تخل عن الدعوة وتحريف للدين، ولا يتفق مع مهمة الداعية فهو مبلغ لدين الله فيجب عليه أن يبلغه كما هو.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

هذا اختبار موضوعي لصدق القرآن يستطيع أن يطبقه كل أحد، فإن كان القرآن مفترى فهم بشر وأصحاب بيان كمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعليهم أن يفتروا مثله كما افترى في زعمهم، فإن استطاعوا؛ فمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلا مفترٍ، وبطلت دعوى النبوة، وإن عجزوا بطلت دعواهم وصحت نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٠٥٣).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

تأمل هذه الآية جيدا، فالله سبحانه يقول: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ولم يقل: «أمانيهم»، فالله سبحانه لا يبخس أحداً عمله حتى لو كان كافرا فمن عمل وجد واجتهد لنيل الدنيا فسوف ينالها، والكفار إذا عملوا لنيل الحياة الدنيا وبهجتها وجمالها وخططوا لذلك وتعبوا فسوف ينالون نتيجة عملهم، يقول الله سبحانه: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، أي لا ينقصون جزاء عملهم، فلا يظن ظان أنه سوف يعمل بجد دراسة وبحثا وتخطيطا ثم يبخسه الله عمله، بل سوف يحصد ثمار عمله حياة ميسرة وصناعة وتقدما ماديا عظيما، وسيطرة على الطبيعة، هذا في الحياة الدنيا أما في الآخرة فلأنهم لم يعملوا لها فلن يجدوا فيها إلا النار، والعياذ بالله.

وكذلك ما يعمله الكفار من أعمال حسنة يريدون بها الذكر في الدنيا فإن الله يعطيهم ما طلبوا فينتشر ذكرهم، وذلك مبتغاهم، ولا ينالون ثوابا في الآخرة.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

تأمل هذه الآية وتأمل ما يفعله بعض زعماء المبتدعة من ادعاء الكرامات لأنفسهم أو ادعاء الولاية: هم يدعون علم الغيب، ويدعون التصرف في الكون فيهبون ويمنعون، وهذا كله مما اختص الله به ونفاه الأنبياء عن أنفسهم، ولو ادعاه نبي لنفسه لكان من الظالمين.

في عدد من الآيات بين الله مهمة النبي بيانا شافيا: معناه تبليغ الرسالة من الله إلى قومه، قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، وقال: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾:

تأمل خطاب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا في مقام التحدي وقارنه بخطابه لهم المذكور في أول سورة نوح (٢-٢٠)، فخطاب الدعوة يختلف عن خطاب التحدي والصراع مع المعاندين.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

العاقبة الحسنة جزاء للتقوى ونتيجة لها.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

إظهار الاعتزاز بالدين والثقة بالله سبحانه أمام المعارضين وفي مقام التحدي هو من نصرة الدين وتعظيم الله سبحانه.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾:

﴿يُهْرَعُونَ﴾ مبني للمجهول من أهرع، وهناك قراءة: ﴿يَهْرَعُونَ﴾ للمعلوم من هرع كما في البحر المحيط[١].

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾:

فسر عدد من العلماء قوله: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ بالحاجة والرغبة، وفي كتب اللغة من معاني الحق النصيب.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾:

الحرية في التصرف في المال فيبيع ما يشاء وينفق ما يشاء أحد مبادئ الرأسمالية، وهو ضد رسالات الأنبياء وضد المبادئ الأخلاقية.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾:

هذه وصفة عظيمة لمن أراد التخفف من سيئاته.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

التربية بالقصة.

والموعظة بأحداث التاريخ.

---

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (٦/ ١٨٦).

سورة يوسف

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

القرآن عربي اللغة وعربي الفهم، فيفهم على طريقة العرب في لغتها ووفق أساليبهم في نظم الكلام.

والعربي المبين عن المعنى.

يفهم من الآية وجود علاقة بين اللغة العربية والعقل، فمفردات اللغة العربية مفردات معقولة، ونظمها وبناء جملها معقول أيضا.

﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

تأمل هنا: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ غلام صغير السن ضعيف القوة يباع بيع الأرقاء، فهو خادم أو بمنزلة الخادم ومع ذلك ذكر الله أمرين عظيمين خصه بهما، الأول التمكين في

مصر والثاني تأويل الأحاديث. يقول السعدي أن ما قدره الله من بيع يوسف على ملك مصر هو طريق لتمكين يوسف في الأرض.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾:

لولا أن يوسف رأى برهان ربه لهم بها كما همت به، ولولا حرف امتناع لوجود فامتنع الهم لوجود برهان ربه.

وجاءت الآية في صيغة إثبات امكانية الهم مع امتناعه لرؤيته برهان الله لإثبات كمال رجولة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فامتناعه من الهم ليس بسبب عجز خلقي، وإنما تعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الأسلوب متكرر في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، فالضلال لم يقع منهم لأن الله هداهم.

وقال: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فالعذاب لم يصبهم لما سبق في كتاب الله من إباحة الغنائم وفداء الأسرى.

وقال: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

فهم ما رجموا شعيبا عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب رهطه.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، فلم يلبث في بطنه إلى يوم البعث لأنه كان يسبح الله سبحانه، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقع منه الهم لأنه رأى برهان ربه عَزَّوَجَلَّ.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾:

طلب من يوسف أن يعرض عن ذكر مراودة امرأة العزيز له فلا يذكره لأحد.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

الثبات لا بد له من إرادة وتضرع إلى الله بسؤاله سبحانه العون والثبات، ومن لم يثبته الله فلن يثبت.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

الدين القيم هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهذه الآية بينت طبيعة الدين القيم: فهو الدين الذي يُعبد فيه الله وحده ويكون الحكم فيه لله سبحانه، والحكم هو التشريع.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾:

تقول امرأة العزيز: إنني اعترفت هذا الاعتراف ليعلم زوجي أنني لم أخنه بارتكاب الفاحشة، وإنما هو مجرد مراودة.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾:

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب الوظيفة أو العمل لأنه علم من نفسه قدرة على القيام به، ورأى حاجة لعلمه، وعلم أنه يجد قبولا لطلبه وحسن ظن فيه، ومن توفرت له هذه الشروط فلا ينبغي له أن يتردد في طلب عمل يتولاه.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾:

كان حزن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على يوسف شديدا، ولكن هل بلغ به حد الاكتئاب؟

أقول: لا، لم يبلغ حد الاكتئاب، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لا زال يأمل في لقاء يوسف ولم يستول عليه اليأس، والمكتئب يائس لا يرجو فرجا، ولا يأنس بأحد. تأمل قوله الذي قصه الله علينا: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وكان يعقوب يعلم يقينا أنه سوف يجد يوسف ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقد كرر هذا المعنى لما جاءه القميص: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾:

حسن الظن بالله مرتبط بالإيمان به ورجاء رحمته عَزَّ وَجَلَّ، فمن علم أن ربه سبحانه قوي قادر رحيم يعلم بحاله ويسمع دعاءه ونجواه فلا ينبغي له أن ييأس.

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

تأمل الجمع بين التقوى والصبر، فلا يكفي الصبر من غير تقوى، ولا التقوى من غير صبر، وهما معا أحد أركان النجاح في الحياة.

والتقوى في حقيقتها تجنبٌ وابتعادٌ عما يضر ويؤذي أو يخالف المقصد الذي يسعى له المتقي، والصبر هو تحمل البلاء والعقبات المؤذية في الطريق. ويمكن القول إن التقوى هي التزام بالخطة الموصلة إلى الهدف، والصبر هو استمرار عليها وتحمل لمشقتها.

ونفهم من الآية أن من أركان الإحسان التقوى والصبر، وبيان ذلك: كي تكون محسنا في ذاتك وفي عملك فلا بد من أمرين:

الأول: الالتزام بالهدف ووضوحه والسعي إليه فلا ينشغل عنه.

والثاني: الصبر على الطريق في السعي إليه، فيتحمل الصعوبات والعقبات المعوقة.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

هنا جاءت ﴿أَنْ﴾ بعد ﴿فَلَمَّا﴾، وفي الآية بعدها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ لم ترد أن، فما الفرق بينهما؟

قال العلماء: مجيء أن هنا للتوكيد، والتوكيد لبيان أهمية الحدث[١]. ومجيء البشير ارتبط به رجوع بصر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذا خلاف المألوف في زمنهم، فناسب ذلك توكيده بأن.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

ذكرت هذه الآية صفتين من صفات الأنبياء:

الأولى: أنهم رجال فما بعث الله امرأة نبية قط.

والثانية: أنهم من أهل القرى فما بعث الله نبيا أعرابيا قط.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٣).

سُورَةُ الرَّعْدِ

﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾:

هذه الآية وما بعدها تبحث في إثبات ربوبية الله لخلقه فهو وحده الخالق المتصرف في الكون سبحانه، وإثبات ذلك هو دليل على تفرده بالعبادة سبحانه.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ﴾:

اختبار البديهيات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾:

معظم القلوب تطمئن بذكر الله فهذه قاعدة عامة في القلوب، إذا ذكروا الله أو سمعوا ذكره أو آياته تتلى وأنصتوا لها اطمأنت، وهناك قلوب هي بمثابة الاستثناء

من القاعدة العامة لا تطمئن بذكر الله، بل تشمئز وهي القلوب الجاحدة التي عرفت الحق وجحدته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾:

تلاوة القرآن على الذين كفروا أحد مقاصد النبوة.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾:

هذا وصف للجنة بثلاث صفات: الأنهار تجري من تحتها، أي تجري فيها وتتخللها، وتجري تحت قصورها وأشجارها، ولا ينقطع أكلها، فالثمر وغيره مما يؤكل دائم فيها، وظلالها باقية لا تتغير بشمس أو غيرها.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾:

ما المقصود بقوله: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؟

قال الطاهر بن عاشور: حكما أي حكمة كما في قوله ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾. وعربيا أي: حكمة معبر عنها بالعربية[1].

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٦٠).

قلت: في هذا ثناء على القرآن من ناحية بأنه مبين، وشهادة للغة العربية بأنها لغة ذات بيان.

فحصل للقرآن كمالان: كمال من ناحية المعنى فهو حكمة، وكمال من ناحية اللفظ فهو عربي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾:

ما معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟

في تفسير التحرير والتنوير: هذه الآية بشارة للرسول بانتصار دعوته ونذارة للمشركين بأنهم مغلوبون، والأرض أرض المشركين ونقصها أي بأن يسلموا[1].

الآية خطاب لكفار قريش بأمر هم يرونه، وهذا يؤيد القول بأن المقصود بالآية انتصار دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخول الأراضي المحيطة لقريش تحت سلطانه بإسلام أهلها.

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٧٠).

سورة إبراهيم

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾:

تأمل فهذا الكتاب يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وطريق النور هو صراط العزيز الحميد، فمن سلك هذا الصراط ينبغي أن يكون أيضا عزيزا محمودا في فعله وصفاته.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

التذكير بأيام الله هو تذكير بنعم الله عليهم، وتذكير بما جرى عليهم وعلى أسلافهم من السراء والضراء، وفي الآية التي بعدها تطبيق عملي على التذكير بأيام الله، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وينبغي للداعية أن يعظ من يدعوهم بأحداث التاريخ التي جرت عليهم وعلى أسلافهم وعلى جيرانهم من الأمم، ففي التاريخ شاهد على نعمه وفضله عَزَّوَجَلَّ ونصره للمظلومين وتمكينه لدينه وعباده المستضعفين، وفيه شاهد على عقابه لمن عصاه وأعرض عن دينه.

والتذكير بأيام الله فيه موعظة للمدعوين وذكرى وتثبيت للحق في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾:

هذه الآية وما بعدها إلى الآية (١٤) تلخيص لقصة الأنبياء مع رسلهم، أو قصة البشرية مع الرسالة، وما بعد الآية (١٤) هو حديث آخر عن جزاء منكري الرسالة في الآخرة.

في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ رد على بعض المؤرخين وعلماء الأنساب ممن يزعم أنه يعلم تاريخ البشرية حتى آدم أو يسوق النسب حتى آدم، فالله نفى العلم عن البشر جميعا، وحصر علم تلك الأمم عنده سبحانه فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾:

ورد ذكر الأتباع والضعفاء في عدد من الآيات، وفيها يحتج الأتباع بأنهم تبع، وأن من أمرهم بالكفر هم الملأ أو أسيادهم، ولم يقبل الله هذه الحجة منهم وأخبرهم أن جزاءهم في العذاب مثل جزاء سادتهم.

سورة الحجر

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾:

«ربما» فيها لغتان وقراءتان بتخفيف الباء وتشديدها، وهي «رب» وما بعدها لتهيئة دخولها على الأفعال، وهي تدخل على المضي، ويستفاد منها التقليل.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾:

حفظ السماء من الشياطين يقتضي الطمأنينة فيما ينزل منها من الوحي.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾:

النباتات الموزونة في الأرض بحيث تناسب جميع المخلوقات التي على ظهرها وتدب عليها دليل من أدلة الربوبية، فمن قدر هذا عليم خبير قادر سبحانه، وفي هذا نقض لنظرية التطور.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾:

قال الشنقيطي: «وَالصَّلْصَالُ الطِّينُ الْيَابِسُ الَّذِي يَصِلُ، أَيْ يُصَوِّتُ مِنْ يُبْسِهِ إِذَا ضَرَبَهُ شَيْءٌ مَا دَامَ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ، فَإِذَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَهُوَ حِينَئِذٍ فَخَّارٌ، وَأَصْلُ الصَّلِيلِ وَالصَّلْصَلَةِ

وَاحِدٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّكَ إِذَا تَوَهَّمْتَ فِي الصَّوْتِ مَدًّا فَهُوَ صَلِيلٌ، وَإِذَا تَوَهَّمْتَ فِيهِ تَرْجِيعًا فَهُوَ صَلْصَلَةٌ، وَالْحَمَأُ: الطِّينُ الْأَسْوَدُ الْمُتَغَيِّرُ، وَالْمَسْنُونُ قِيلَ: الْمُصَوَّرُ مِنْ سَنَّةِ الْوَجْهِ، وَهِيَ صُورَتُهُ»(١).

وقال ابن عاشور: «والمَسْنُونُ: الَّذِي طالَتْ مُدَّةُ مُكْثِهِ، وهو اسْمُ مَفْعُولٍ مِن فِعْلِ سَنَّهُ؛ إذا تَرَكَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً تُشْبِهُ السَّنَةَ»(٢).

﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾:

بيان صفات الله سبحانه وأنه غفور لمن أخطأ، رحيم بخلقه، مما ينبغي أن يحرص عليه الداعية والمربي، فيحرص على تقريب الناس إلى ربهم، ويتجنب تيئيسهم من رحمته ومغفرته.

وينبغي أن يكون الحديث متوازنا فلا يغلب عليه الرجاء والرحمة أو اليأس والعقوبة، فهذا النوع ينتج شخصيات معتلة، فينبغي للمربي أن يبين سعة رحمته سبحانه ومغفرته لمن تاب وأناب، ويبين أنه صاحب عذاب أليم لمن عصاه وأعرض عنه.

وفي الآية أمر رسوله أن ينبئ الناس بالأمرين معا، بالمغفرة والرحمة، وبالعذاب الأليم.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾:

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، والأيكة الشجرة العظيمة الملتفة.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾:

يعود ضمير التثنية إلى قوم لوط، وقوم شعيب أصحاب الأيكة.

---

(١) «أضواء البيان» (٢/ ٢٧٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٤/ ٤٢).

سورة النحل

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

مما يمكن أن يستفاد من هذه الآية أن سيرة الأنبياء في الدعوة واحدة، وأن دعوتهم واحدة، فجميعهم يدعون إلى التوحيد، والعمل الصالح، ونبذ الشرك والفساد في الأرض.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾:

أي له الطاعة دائمة.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تزيين العمل السيئ يأتي من الشيطان كما في هذه الآية، ويأتي نتيجة السيئات التي يعملها الناس، كم قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾.

فالعمل السيئ يفضي بصاحبه إلى عمل سيئ، وربما استحسنت نفسه السيئات، والعمل الصالح يدفع صاحبه إلى العمل الصالح كما قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. وتزيين العمل السيئ يأتي أيضا من القرناء والأصحاب: ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

ويأتي نتيجة الثقافة الاجتماعية حينما تكون ثقافة المجتمع تشجع المنكر وتضيق بالفضيلة، كما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، ويكون نتيجة لدعوة الملأ في المجتمع وهم أكابر الناس والمقدمون فيهم إذ يأمرونهم بالسيئ من القول والفعل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

المعرفة يكتسبها الناس عن طريق الحواس بعد الولادة.

تأمل قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، ولم يقل: «لا تعرفون شيئا»، لأن المعرفة تأتي بعد جهل، ولا تكون إلا بعلامات: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وقال: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، فلا يمكن أن يولد أحد بالمعرفة لأن المعرفة آنية وليدة اللحظة الحاضرة، أما العلم فليس كذلك، ولهذا نفى الله سبحانه العلم عمن يولدون، وأثبت لهم كسب المعرفة بالحواس.

مراحل تكون المعرفة والإيمان:

١- المدركات الحسية.

٢- المعرفة.

٣- المدركات العقلية الكلية.

٤- الإيمان.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

الإيمان لا يأتي إلا بعد عقل المعنى الكلي من الحدث، فهم يرون الطير في الهواء ما يمسكهن أحد من الخلق، فيدركون قدرة الله وعظمته سبحانه ثم يؤمنون به.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾:

يعرفون فعل مضارع ويفيد تكرار الحدوث، فهم يعرفون نعمة الله مرة بعد أخرى، بسبب ما يحصل لهم من النعم ومن الحوادث الموقظة التي تذكرهم بأن ما عندهم من الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾:

هذه أربع صفات للقرآن:

١- تبيان أو بيان.

٢- هدى.

٣- رحمة.

٤- بشرى.

والبيان يتضمن هداية الدلالة، والهدى هنا أكثر من مجرد الدلالة والإيضاح، بقرينة أنه رحمة وبشرى، فمن قرأه شرح الله صدره للحق، وشفاه من المرض الحسي والمعنوي، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

إيتاء ذي القربى داخل في العدل والإحسان، ولكن خصه الله بالذكر لعظيم منزلته، أو للغفلة عنه، فالناس ربما أحسنت للبعيد، وغفلت عن القريب.

والبغي هو الظلم، وهو داخل في الفحشاء والمنكر، ولكن خصه بالذكر لما فيه من السوء البالغ، أو لأن النفوس تميل للتعدي والظلم حينما تطلب مرغوبا أو تدفع مكروها.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

دخلا بينكم أي: خديعة، وقال ابن سعدي: تتخذون أيمانكم تبعا لأهوائكم[1].

(١) «تفسير السعدي» (ص٤٤٨).

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

هاتان الآيتان تتحدثان عن قضية تعرض للعلماء والقضاة والأمراء وذوي الهيئات حينما يبتلون بالتنازل عن شيء من الشرع، إما بتحسين باطل، أو الإفتاء بباطل، أو نصرة ظالم، أو حينما يطمعون في أمر دنيوي لا ينال إلا بباطل من القول أو العمل، يقول الله أن ما ينالونه لهذا الغرض ثمن قليل، ثم هو ثمن نافد، وما عند الله هو الباقي، وهم إن صبروا فما عند الله من الأجر والجزاء خير لهم.

ويؤكد سبحانه على الصبر في هذه المواقف، كما يؤكد عَزَّوَجَلَّ أنهم بسبب صبرهم سوف ينالون أحسن الجزاء.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

عمل الصالحات في القرآن ليس خاصا بأداء العبادات، وإنما هو أسلوب حياة يشمل تفاصيل الحياة كلها، ويذكر الله أن أولئك الذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون بالله سوف يحيون حياة طيبة في الدنيا، ولهم الجزاء الحسن في الآخرة.

من كان يعمل الصالحات فلا بد أن تكون علاقاته بالناس حسنة، وهذا من الحياة الطيبة، وعلاقته بنفسه حسنة، فيكسب الأمن النفسي والطمأنينة، وهذا من الحياة الطيبة، ويكون راضيا بالقضاء والقدر، وهذا من الحياة الطيبة. وفي قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ أي في الدنيا.

والصالحات ما وافق الشرع، والشرع متوافق مع العقل والفطرة، فالعقل والفطرة يهديان العبد إلى الصالحات، فالإحسان إلى الناس والرحمة بالضعيف والمسكين وإتقان العمل والصدق والأمانة وتجنب الغيبة والعفو عن الناس، جميع هذه وغيرها مما هو مثلها مما دل عليه العقل والفطرة السوية وأمرت به الشريعة.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾:

الناجون من سلطان الشيطان هم المؤمنون المتوكلون على الله.

وهنا فائدة وهي: أن الشيطان يدخل على الناس من خلال شهواتهم حينما يتعلقون بغير الله فيضعف توكلهم.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

هذه الآية نص في ضرورة معرفة علوم القرآن لمن أراد دراسته وفهمه، فلا بد أن يعرف ناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، وأسباب النزول، وإلا وقع في التناقض، ورد بعض ما أنزل الله.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾:

هذه آية عامة في القرآن، فهو هدى وبشرى وتثبيت للمؤمنين، وفيها أيضا إشارة إلى أهمية معرفة سبب النزول، فهي تتحدث عن آيات محددة ردها الذين لا يعلمون، وبيان

خطأ ما ذهبوا إليه، يلزم منه معرفة سبب النزول، وهذه الآية فيها بيان لما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾:

هاتان الآيتان تبينان سبب انتكاس من انتكس -والعياذ بالله- فارتد عن دينه: ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، ومن استحباب الحياة الدنيا أن يعبد العبد ربه على حرف، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾:

المنتكسون ومن ارتدوا عن دينهم بسبب تفضيلهم الحياة الدنيا طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم وهم غافلون عن نذر الله وآياته، فلا يرجى منهم خير، ولهذا تجدهم أشد على الذين آمنوا وأجرأ في محاربة الدين.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾:

المقصود ببني إسرائيل هنا اليهود أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾:

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار[1].

وبعض المفسرين المعاصرين يخالف في ذلك ويقول: بل هم قوم مؤمنون، وجميعهم يستدلون بقوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٤٥٤).

فما المقصود بقوله عبادا لنا؟

هل هي عامة في جميع الخلق، فجميعهم عباده سبحانه مؤمنهم وكافرهم أم خاصة بالمؤمنين به عَزَّوَجَلَّ؟

في اللغة النكرة تفيد العموم وقوله عبادا لنا نكرة فهي عامة في جميع عباده، ولهذا لم يعبر الله عن المؤمنين به إلا بقوله: ﴿عِبَادِى﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وقال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

فهنا استفادت كلمة عباد التعريف بإضافتها إلى ضمير الاتصال، فأصبحت تطلق على طائفة من الناس مخصوصة وهم المؤمنون به سبحانه، ولهذا كان المفسرون متفقين على أن المعني بقوله: ﴿عِبَادًا لَنَا﴾ قوم كفار، وإن كانوا اختلفوا في تحديدهم.

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾:

هذه قاعدة في وقوع عذاب الأمم، فلا أحد يصيبه العذاب حتى يتقدم الله إليهم بالنذر والبينات الواعظة.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾:

لماذا عدّ المبذرين إخوانا للشياطين؟

وصف الله عَزَّوَجَلَّ الشيطان بأنه كفور، فهو متمرد على أمره سبحانه، والمبذر عنده كفر النعمة، فهو لا يشكرها ولا يراعي حق الله فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾:

تأمل نهاية الآية بعد أن ذكر سبحانه أنه يقدر لطائفة من عباده الغنى ولطائفة أخرى الفقر فقال عن نفسه أنه خبير بصير، فهذا التقدير لحكمة، فعلى العبد أن يرضى بما قضاه عَزَّوَجَلَّ له.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾:

ذكر في هذه الآية وفي الآيات بعدها بعض الأمراض المرتبطة بالمال، إما خشية الفقر أو الرغبة في جمع المال والتكثر منه، أو ما يتركه جمعه من أثر في بعض النفوس، فذكر قتل بعض الأولاد خشية الإملاق وهو شدة الفقر ثم ذكر الزنا، فبسبب الفقر تبيع المرأة عرضها لكسب المال، وذكر قتل النفس المعصومة، ولربما قُتل الرجل طمعا في ماله كما يفعل قطاع الطرق واللصوص، وذكر التعدي على أموال اليتامى، وذكر التطفيف في الكيل، وذكر الغيبة والنميمة وتتبع عورات الناس والبحث في خصوصياتهم، وذكر الكبر والمشي في الأرض مرحا، كل هذه الأمراض لها ارتباط بالمال، إما رغبة في جمعه وتحصيله، أو خوفا من فقده.

وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ فبدأ بتأكيد رزق الأولاد، مع أن المخاطب الوالدان لتطمين الوالدين بحفظ رزق ذريتهم، فلا يلجأون إلى قتلهم خوف الفقر.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾:

للآية معنيان:

الأول: أن تُغالب الآلهة صاحب العرش وتنازعه في الاستيلاء عليه فيحدث الخلل في الكون كما في قوله تعالى ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

والثاني: أن تتقرب الآلهة إلى صاحب العرش لأنه الإله الأعظم، وإذا كان هذا هو ما يمكن أن تفعله الآلهة مع الإله العظيم صاحب العرش فهي آلهة باطلة وأنتم أولى بالطاعة والخضوع.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾:

كل ما في الوجود بما في ذلك الأوثان التي تعبدون خاضع لله ويسبح بحمده سبحانه.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا
(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ
وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ
هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾:

لماذا جعل الله بين رسوله وهو يقرأ القرآن وبين المشركين حجابا، وجعل على قلوبهم أكنة فلا يفقهون ما يسمعون، أليس هذا يتعارض مع مقصد الرسالة؟

والجواب: أن سبب ذلك طريقة استماع المشركين القرآن، فهم لا يستمعون استماع طالب الحق الباحث عن الهدى، وإنما استماع المشكك المعرض، من يريد أن يشغب على الرسالة ويصد الناس عنها، فهم يتناجون بذلك في سرهم، ويعلنون ذلك أيضا للأتباع، وينشرون عن الرسالة دعاية كاذبة ظالمة تتهمه بالسحر، وإلا فالقرآن ميسر للذكر وكتاب هداية وتبيان ورحمة لطالبي الحق والهدى.

﴿وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾:

سبب أكثر الخلافات بين الناس سوء التواصل بينهم، إما كلمة خاطئة قيلت، أو قول فهم على غير وجهه، أو سوء تعبير عن مقصد لعله حسن، ولهذا أمرنا الله سبحانه بقول الأحسن لتطمئن النفوس، وبين أن الشيطان حريص في إثارة الخصومات والنزاعات بيننا بسبب ما نقوله مما هو غير حسن.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾:

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا﴾: «لا» نافية وتجدوا معطوف بـ«ثم» على يخسف، وهو منصوب بحذف النون.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾:

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا﴾: ثم عاطفة على التراخي، ولا نافية، وتجدوا معطوف على فيغرقكم وهو منصوب بحذف النون.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾:

تكريم بني آدم أصل عظيم في التشريعات والخطط والأنظمة والتربية.

لم يقل عَزَّوَجَلَّ: «لقد كرمناكم أيها الناس» بل ذكرهم باسم أبيهم آدم الذي كرمه من قبل، فخلقه بيده وأسجد له ملائكته، ونداؤهم باسمه تكريم أيضا لهم.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾:

إذا كان هذا في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن الله ثبته فغيره أولى بالحذر والاحتياط، فليحذر العلماء والدعاة من اتخاذ تحريف دين الله بضاعة يتقربون بها إلى من لا خلاق لهم.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾:

ويكفي في الضلال أن تميل إليهم في فعلك أو قولك شيئا قليلا، ربما كلمة تجاملهم بها فتثني على بعض ضلالهم، أو موافقتهم في شيء يسير منه، فتكون سببا في هلاكك وعقاب الله الأليم لك، ليس شرط الضلال أن تنتقل إلى دينهم، بل يكفي القليل من الميل لتستحق به العقوبة البالغة، إلا أن الله رحمك فثبتك وعصمك من الركون إليهم.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾:

في هذه الآية إشارة إلى أوقات الصلوات الخمس، ودلوك الشمس ميلها أو زوالها عن كبد السماء إلى جهة الغروب ويدخل في ذلك صلاتا الظهر والعصر، وقوله ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ يدخل فيه المغرب والعشاء.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾:

هذه الشبهة هي من أكثر شبه المشركين الرافضين لرسالات الرسل تكرارا في القرآن، يقول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره العظيم التحرير والتنوير: «فالظّاهِرُ حَمْلُ التَّعْرِيفِ في النّاسِ عَلى الِاسْتِغْراقِ، أيْ ما مَنَعَ جَمِيعَ النّاسِ أنْ يُؤْمِنُوا إلّا ذَلِكَ التَّوَهُّمُ الباطِلُ؛ لِأنَّ اللهَ حَكى مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ كُلِّ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ رَسُولَها فَقالَ حِكايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿ما هَذا إلّا بَشَرٌ مِثْلُكم يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكم ولَوْ شاءَ اللَّهُ لَأنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهَذا فى آبائِنا الأوَّلِينَ﴾.

وحُكِيَ مِثْلُهُ عَنْ هُودٍ: ﴿ما هَذا إلّا بَشَرٌ مِثْلُكم يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلُونَ مِنهُ ويَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ ولَئِنْ أطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكم إنَّكم إذا لَخاسِرُونَ﴾، وعَنْ قَوْمِ صالِحٍ: ﴿ما أنْتَ إلّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾، وعَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ: ﴿وما أنْتَ إلّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾، وحُكِيَ عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿قالُوا أنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا﴾، وقالَ قَوْمُ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿بَلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهم مُنْذِرٌ مِنهم فَقالَ الكافِرُونَ هَذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾»[١].

وبين الله خطأ هذا التوهم في الآية بعدها فقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، فالرسول يكون من جنس المرسل إليهم لتسهل المخالطة بينهم.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾:

استدلوا على إنكار البعث بتحول الإنسان إلى رفات وعظام، واستنتجوا من هذه الظاهرة الحسية استحالة البعث.

(١) «التحرير والتنوير» (١٥/ ٢١٢).

ويستفاد من ذلك عجز المنهج الحسي عن تفسير ما يقع خارج نطاقه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾:

رد الله شبهتهم بأنه سبحانه لا حدود لقدرته، فهو خلق السماوات والأرض من العدم، وقوانين المادة التي تعارف عليها الناس لا تنطبق على قدرته في الخلق، ورد الشبهة بمثال محسوس قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾.

فمهما كانت خزائن الإنسان ملأى فسوف تنفد لأنه لا يستطيع أن يعوض المعدوم أما الله سبحانه فخزائنه ملأى لا تغيضها النفقة.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾:

القوانين –التي يعهدها الناس– لا تنطبق على من خلق القوانين وقدرها سبحانه، فلا ينبغي لهم أن يقيسوا قدرته بقدرة البشر أو يتصوروا أن قدرته محدودة بما يحد قدرة الناس من سنن الطبيعة.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾:

هذه طبيعة نزول القرآن نزل مفرقا، وهذه طبيعة تلاوته على مكث، وكذلك دراسته وفهمه.

سُورَةُ الكَهفِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾:

وصف الله كتابه بأنه قيم، وبأنه خال من العوج في المعاني، والعوج هو الميل والانحراف عن الحق، وهذا مثل قوله في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ومثل قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وقوله في سورة الزمر: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾. وهذا التأكيد المتكرر على سلامة القرآن من الخطأ والانحراف في المعاني من أجل أن يطمئن تاليه ويقبل على ما فيه من الهدى.

﴿قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾:

هذا هو حقيقة التدين: الإيمان بالغيب وعمل الصالحات.

وبين هذين العنصرين علاقة وثيقة، فالإيمان يدفع لعمل الصالحات، وبعمل الصالحات يزداد الإيمان.

وكل تدين خلا من هذين الركنين فهو ليس تدينا حقيقيا.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾:

ترابا لا نبات فيه.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾:

الوصيد: مدخل الكهف أو فناؤه.

وهنا مسألة من ملح العلم وهي من مسائل الإعجاز العلمي كشف عنها تقدم البشر في العلم، وهي لماذا كانوا يقلبون ذات اليمين وذات الشمال، بينما الكلب كان على هيئة واحدة فلم يكن بحاجة إلى تقليب مع طول المدة، وهذه المسألة مما لا يعرفه أهل ذلك الزمان حين نزول القرآن وإنما عرفه الناس مع تقدم علمي وظائف الأعضاء والتشريح.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾:

هنالك اسم إشارة إلى يوم القيامة، أي في اليوم الذي لا يملك أحد لأحد شيئا يكون الملك لله وحده، والولاية هي الملك، وفي ذلك اليوم فالله خيرٌ للمؤمنين فالثواب الأعظم منه، وهو خيرُ عاقبةٍ للمؤمنين.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ بيان أن الله عَزَّوَجَلَّ نوع الطرق الهادية في القرآن وكثرها بحيث إذا قرأه طالب الهدى يهتدي به، فيقرأه

العلماء على اختلاف اهتماماتهم وتخصصاتهم ويهتدون به ويقرأه العامة والصغار والكبار والجاهل والرجل والمرأة ويسمعه الأمي فيهتدون به، فسبيل الهداية بالقرآن ليس محصورا في طريق واحد أو طرق معدودة، وقد سمعنا ورأينا من اهتدى به بسبب المعنى، ومن اهتدى به بسبب الصوت والتلاوة أو النغمة وإن لم يفهم معناه، ومنهم من اهتدى به بسبب كلمة تضمنتها آية، ومن اهتدى به بسبب تشريع من تشريعاته، أو بسبب الإعجاز العلمي، أو بسبب ما تضمنه من أخبار، وسبحان العليم الخبير.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾:

من يعرضون عن آيات الله ومواعظه ولا يحاسبون أنفسهم فلا يبالون بما عملته أيديهم من خطأ وظلم هم من أسوأ الخلق استجابة، وبسبب عملهم يغلف الله قلوبهم فلا تتعظ ولا ترعوي، ويسد عليهم منافذ الإدراك، فلا يدركون الهدى والحسن والقبيح وهؤلاء لا يستجيبون لمن يدعوهم مهما كرر الدعوة.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾:

العلم الذي آتاه الله نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يختلف عن العلم الذي آتاه الخضر وكلاهما من الله، لكن الذي آتاه الله موسى قائم على الحس والعقل أما علم الخضر فيعتمد على الغيب، ولهذا فالعلم المطلوب من البشر ويلزمهم التسليم به هو ما يمكن أن تدركه حواسهم وتستوعبه عقولهم، أما علم الخضر فينبغي تلمسه فيما يصيبهم من قضاء وقدر، فإذا أصاب المسلم ما يكره ولا يستطيع دفعه من القضاء القدر رضي به وسلم، رجاء لما فيه من الخير، وإيمانا بأن الله لا يقضي قضاء إلا كان خيرا للعبد.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾:

في هذه الآية دليل على احتمال المفسدة الأقل لدفع مفسدة أكبر.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾:

في هذا دليل على تحمل المفسدة الصغرى لدرء المفسدة الكبرى في الدعوة والإصلاح والحكم وغيرها.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾:

تأمل قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، هذه الآية تفيد أنه لا ينبغي لأحد أن يستدل بعلم الخضر أو بالقدر لأنه لا يعلمه، وإنما هو من علم الله الذي حجبه عن خلقه، أما الخضر فحالة خاصة والله سبحانه أوحى إليه.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾:

عالم الشهادة عالم محكوم بقانون السببية، فهو يتغير بالأسباب ومن لا يملك الأسباب فلن يستطيع التغيير فيه، والتمكين لذي القرنين في الأرض من ضرورياته التمكن من الأسباب وهي الوسائل أو الأدوات التي يتوصل بها إلى الأشياء، ولعل في هذا إشارة إلى ثلاثة أنواع من الأسباب أو ثلاث قوى تهيأت لذي القرنين:

١- قوة الملك أو السلطان.

٢- والقوة المادية.

٣- وقوة العلم.

وهذه القوى الثلاث ظهرت واضحة فيما قصه الله علينا من خبر ذي القرنين.

سورة طه

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾:

في هذا الموقف الذي هو موقف تحد ومغالبة لموسى وعظهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ وهذه الموعظة تركت أثرا فيهم كان من شأنها أن تنازعوا في أمر موسى فبعضهم قال: أنه مصيب وإننا مغلوبون، والبعض قال: لا.

ويستفاد من ذلك أن على الداعية ألا يتأخر عن وعظ الناس، بل عليه أن يعظ كما وعظ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾:

﴿إِنَّمَا﴾: إن الذي، و«ما» اسم إن، و﴿كَيْدُ﴾ خبرها مرفوع، فكيد ليست مفعولا لصنعوا. و«إنّ» هي إن التوكيدية وما الموصولة وليست الكافة.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾:

﴿بِمَلْكِنَا﴾: باختيار منا.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾:

في الرواية الكنسية لقصة آدم الشجرة هي شجرة المعرفة، وهي شجرة التفاح، وهذا من الإسرائيليات، فهي ليست شجرة المعرفة ولا الخلد، ليس لها أي خاصية، وحرمت على آدم لتهيئته للنزول إلى الأرض التي خلق لها، والأرض فيها الحلال والحرام.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾:

بعد أن عصى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه اجتباه سبحانه وتاب عليه، فلا يوجد ما يسمى بالخطيئة الأصلية في الإسلام، آدم عبد مجتبى وتائب قبل الله توبته، وليس خاطئا كما في التصور الكنسي.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾:

من أعظم أسباب الإعراض عن ذكر الله وشريعته طلب الراحة في الحياة والتحلل من قيودها، وهنا يخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن لمن أعرض عن ذكره وشرعه معيشة ضنكا في الحياة الدنيا.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾:

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من واو ﴿أَسَرُّوا﴾، وفي مثل هذا للعرب فيه لغتان:

إحداهما: تجريد الفعل مع المثنى والجمع.

والثانية: أن يأتي ضمير متصل يناسب المثنى والجمع كما في هذه الآية.

والعجيب أن بعض النحاة يضعف هذه اللغة مع أنها وردت في القرآن والسنة، كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**»(١).

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾:

انتظام الكون دليل على وجود خالق واحد سبحانه، فهذا الكون لا يمكن أن ينتظم بدون خالق أو بوجود خالقين متعددين، أيضا هذا الكون لا يمكن أن ينتظم بوجود

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٥٥).

أكثر من إله يستحق العبادة، فالكائنات كلها لا تسبح إلا بحمد الله المستحق للحمد، ولو تعدد التسبيح لِتعدُّدِ الآلهة لفسد الكون، وكذلك حياة الناس تفسد إن لم تكن خالصة لله سبحانه، تستمد تشريعاتها من إله واحد، ويتوجهون إليه بالعبادة.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾:

هذه قاعدة في فهم أفعال الله عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه الحكيم العليم الذي أتقن كل شيء خلقه، تنزه عن العبث والظلم، فلا تقاس أفعاله بمقاييس المخلوقين، وما يقع في الوجود من حدث صغير أو كبير كمرض وصحة وجدب وخصب وفقر وغنى وزلازل وبراكين ومنح ومنع إنما هو لحكمة قد تخفى على الناس، فلا ينبغي لأحد أن يعترض على قضائه فيسأل: لِمَ؟.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾:

خص الله عَزَّوَجَلَّ القرآن من بين الكتب السماوية بوصف البركة.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾:

لا يرجعون إلى الدنيا بعد عذابهم ليتوبوا.

سورة الحج

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾:

هذان دليلان على البعث: فالذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم، والذي يحيي الأرض أو يبعثها بعد موتها قادر على البعث.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾:

لعله مما يستفاد من هاتين الآيتين أن الجدل للوصول إلى الحق لا شيء فيه بل هو محمود، أما من يجادل بغير علم وإنما لذات الجدل فهذا مذموم. ألا تراه يقول:

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟ فهو متكبر لا يخضع للحق لو ظهر له، ولا يريد الوصول إليه، وغايته من الجدل إضلال الناس عن سبيل الله.

ومن الفرق بين النوعين أن الأول يجادل لدفع شبه عنده، فهو يتطلب الجواب عنها، أما الثاني فهو يختلق الشبه ويثيرها للصد عن الحق.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾:

هذه الآية تبين حقيقة العبادة الصادقة والعبادة المنحرفة، والانحراف هنا ليس في صفات العبادة من حيث هي سنة أو بدعة وإنما في نفسية صاحبها، فالمتعبد المنحرف الذي يعبد الله على حرف يريد أن يتوصل بعبادته إلى شيء من الدنيا فإذا نال مبتغاه ترك العبادة، وإذا أيس من مبتغاه ترك العبادة، ولهذا كما يتحدث المتحدثون والوعاظ والمربون عن صحة العبادة من حيث هيئاتها وصفاتها ينبغي لهم أن يتحدثوا عن الإخلاص وحقيقة العبودية لله سبحانه وصفات العابدين المخبتين المعظمين لله، وبيان أن كل عبادة من قلب صادق ينبغي أن تترك في القلب تعظيم شعائر الله وتعظيم حرمات الله فلا يلجها، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾:

لمن: اللام لام القسم، وجوابه: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾، أو لام الابتداء وخبره: ﴿لَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

﴿بَوَّأْنَا﴾: هيأنا.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾:

قدم شهود المنافع للتنبيه إلى أهميتها، وإلا فلا شيء أفضل من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والمنافع تشمل منافع الدنيا والآخرة، وربما تكون منافع أفراد كالتجارة، أو منافع عامة للأمة المسلمة، كالتشاور فيما ينزل بها من قضايا والتخطيط لمستقبلها. ولهذا ينبغي لقادة المسلمين وعلمائهم وذوي الرأي فيهم العناية بشهود المنافع وتعلمها والتخطيط لها وتيسير ذلك كما يحرصون على الحج وتيسيره ومعرفة أحكامه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾:

جميع شعائر الإسلام الشعائر الفردية كإعفاء اللحية، وحجاب المرأة؛ والشعائر الجماعية كإقامة الصلاة في المساجد، وتحكيم شرع الله، والأذان؛ والشعائر القولية، والشعائر العملية، والشعائر في اللباس يجب تعظيمها لأن من شرعها هو الله الحكيم العليم الذي لا يشرع إلا ما فيه مصلحة الناس وخيرهم، وما يصلحهم في الآجل والعاجل.

وتعظيمها هو من تعظيم الله سبحانه، ومن انتقص شيئا منها فهو دليل على جهله بشريعة الله، أو دليل على ضعف التقوى في قلبه، أو على تلطخه بشعبة من شعب

النفاق –والعياذ بالله– ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

قانون التدافع واستمرار الحياة.

الجهاد ليس فقط لحماية المساجد، بل هو أيضا لحماية معابد الأديان الأخرى فلا يعتدى عليها بالهدم والتخريب والمنع، ويستفاد من هذه الآية أن معابد الأديان الأخرى ليست مقصودة من المجاهدين بالأذية والتخريب.

ويستفاد أيضا أن الإسلام حينما يحكم أرضا يقيم العدل فيها، ويحمي رعاياه من غير المسلمين، ويوفر لهم الأمن فلا يعتدى عليهم، ولا يعتدي بعضهم على بعض.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾:

هذه الآية تهدم مبدأ الليبرالية أو الحرية الفردية، وتقرر أنه يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحافظة على الشعائر الظاهرة بإقامة الصلاة في المساجد، وإن قلت ما دليلك من الآية على إقامة الصلاة في المساجد؟ قلت إن الله أسند إقامة الصلاة إلى الجماعة الذين مكنهم الله في الأرض، فلا بد أن يكون أداء الصلاة ظاهرا عاما جماعة، أما صلاة الفرد في بيته فيمكن أن تتم سواء وجد التمكين أو لم يوجد.

هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا..﴾ لتعلم أن هدم كنائس النصارى وبِيَعُ اليهود ليس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو ضده.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾:

تفيد الآية أن التعقل أحد وظائف القلب.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾:

الله سبحانه لا يعجل كما يعجل الناس فلا تستعجلن عقوبة كافر ومنافق وظالم، ووعده بالعقوبة حتما سوف يتحقق فهو عَزَّوَجَلَّ لا يخلف وعده ولكن هو من يحدد متى تكون العقوبة، وكثير من الأمم أنذرها الله فكفرت وتولت وأمهلها وأعطاها من نعمه ثم أخذها أخذا شديدا وحلت عليها عقوبته.

ويستفاد من الآية أن الظلم من أعظم أسباب العقوبة، والظلم أنواع، فمنه ما هو ضد العدل، وهو التعدي على حقوق الأفراد، على أموالهم وأبشارهم ومصادرة حقوقهم، ومنه انتشار الشرك وحمايته والدعوة إليه، وهذا أعظم الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ومنه الدعوة إلى قيم ومبادئ مناقضة لقيم الإسلام وأخلاقه وفضائله، فهذا فيه محادة لله في شرعه قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾.

وجميع أصحاب هذه الأنواع من الظلم مستوجبون العقوبة.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

إثارة الشبهات ليس شرا محضا، وكما أنه سبب في ضلال من يضل فهو أيضا سبب في هداية من يهتدي، فكما أن هناك من يبحث عن الحق ويطلبه مظانه فهناك من يبطل الشبهات الملقاة فيكون هذا سببا في هداية من يهتدي وإخبات قلبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

هذه الآية توجه إلى أن فعل الخير ينبغي أن يكون أسلوب حياة للمسلم، وفعل الخير جاء معطوفا على الأمر بالركوع والسجود وعبادة الله، ولعله أقرب إلى الإحسان إلى الناس، فهو شامل وعام أوسع من أعمال العبادات كالصلاة والأعمال العبادية المحضة، وفعل الخير هنا هو المعبر عنه في آيات أخرى بعمل الصالحات.

سورة المؤمنون

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

الفلاح هنا أخروي ودنيوي، ولكن الفلاح الدنيوي الحقيقي لا ينال إلا بعمل الآخرة، فمن أراد أن يفلح في الدنيا فعليه بالدين وأداء أمور عبادية محددة ذكرتها الآيات، ومن أداها فقد أفلح دنيا وأخرى، والأعمال التي ذكرتها الآيات وبها فلاح المؤمنين تتعلق بحسن أداء الصلاة بالخشوع فيها، وأدائها في وقتها وحسن ضبط الوقت بالإعراض عن اللغو واستثمار الوقت فيما ينفع، وأداء الزكاة، وهذا يتضمن التواصل مع إخوانه والشفقة عليهم، وحفظ الفرج، ويتضمن التحكم في النوازع الداخلية واحترام الآخرين فلا يتعدى عليهم ولا يتطلع إلى ما عندهم.

وذكرت أيضا حفظ الأمانة والعهد، وهذا ضروري للثقة بين الناس، والمجتمع من غير ثقة بين أفراده لا يستقر ولا ينمو، حتى لو كان المجتمع مجموعة من المجرمين أو اللصوص لا بد من ثقة بعضهم في بعض، ووفاء بعضهم بعهود بعض، وإلا فإن تجمعهم سوف ينهار، والمجتمع السوي أولى بما يشيع الثقة بين أفراده.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾:

من أكثر ما يصد الناس عن الدين ويقع به التلبيس على العامة وجود مسلمات خاطئة استقرت عندهم وظنوا أنها الحق، فيحاكمون الحق المنزل إليها فيرفضونه.

وهؤلاء أتاهم الرسول بشيرا ونذيرا، فكان الأصل أن ينظروا في دعوته ويفحصوا أدلتها، ولكنهم بدلا من ذلك ردوها بحجة لا علاقة لها بالرسالة، قالوا هذا الرسول بشر مثلنا ولو كان الله يريد بَعْثَ رسولٍ لأنزل ملائكة تبلغ عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾:

رفضوا الرسالة لما يعتقدونه أن الله لا يبعث بشرا رسولا، ولأنهم يرون أن الإسرائيليين أقل درجة اجتماعية من المصريين.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾:

هذه الآية تهدم الفلسفة الوضعية، فالحق ليس ما تواضع عليه الناس فهم قد يتواضعون على الباطل فهذه أهواء، والحق يكون حقا لأنه في ذاته حق لا لأن الناس ارتضوه، والباطل في ذاته باطل لا لأن الناس ردوه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾:

هناك كفر سببه الجهل، وهذا يزول بالدعوة والتعليم، وهناك كفر سببه العناد والكبر -والعياذ بالله- وهو المقصود في هذه الآيات، وأصحاب هذا النوع من الكفر هم من ورد فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾:

هذه من أعظم الحجج التي يحتج بها الذين أشركوا، فهم يقولون كما في آية أخرى نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

تأمل في رد الله هذه الشبهة عليهم من قوله: ﴿قُل لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الرد تناول قضيتين:

الأولى: قدرته سبحانه التامة وملكه العظيم وتفرده بذلك، فهو سبحانه خلق ولا شريك له في الخلق، وهو سبحانه المتصرف في خلقه، فهو قادر على بعثهم بعد موتهم.

و**الثانية**: لا تستقيم الحياة بوجود إلهين معبودين، كما لا تستقيم بوجود خالقين اثنين.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾:

هذا إما احتجاج بالبيئة الاجتماعية، أو احتجاج بالطبيعة والجبلة أو القدر، سببه في زعمهم ما جبلوا عليه من الشقاء، أو ما في المجتمع من فساد، أو بسبب الشقاوة التي كتبت عليهم في القدر.

سُورَةُ النُّورِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا
جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾:

حادثة الإفك تكشف جزءا من طبيعة الناس، فمهما كان المجتمع نظيفا ومهما كان الناس صالحين، فلديهم استعداد لتقبل الشائعات والخوض فيها.

هذه ليست حادثة عادية، إنها حدثت في أطهر مجتمع، ومست أطهر بيت، ومع ذلك خاض فيها بعض الصحابة رضوان الله عنهم، وهم من خيار الناس، واتهموا عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان الأولى بهم أمران:

١- حسن الظن ببيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبزوجته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٢- مطالبة المتحدث بالشهود على ذلك.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾:

وهذا هو الواجب في حق كل مسلم، حسن الظن، ومطالبة المتحدث بالشهود، أما اتهام الأبرياء وإشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم فجرم كبير.

وإذا كانت حادثة الإفك وقعت في أطهر مجتمع، ومست أطهر بيت، وخير الناس على وجه الأرض، فالواجب الاحتياط والتثبت وعدم تتبع الشائعات أو تقبلها وإشاعتها.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾:

هنا صفتان عن الخائضين في الشائعات:

الأولى: الغالب عليهم أنهم يخوضون في شيء لا علم لهم به.

والثانية: أنهم يتساهلون في إطلاق الأحكام واتباع الظنون، والقرآن يحذر من ذلك.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

حادثة الإفك كانت سبيلا لتحصين المجتمع المسلم من الشائعات، والتحصين تجاوز احترام المبادئ الأخلاقية إلى العقوبات العملية لمن يقذف مسلما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

البعض لا يمارس الفاحشة، ولكنه يستمتع برواياتها وتتبع أخبارها والشائعات حولها، فيشيعون في المجتمع المسلم صورة غير حقيقية تحطم بنيته الأخلاقية وتجرئ ضعاف النفوس على الفاحشة، وهؤلاء في الحقيقة ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع وهم جديرون بالعقوبة الرادعة.

ومن أعظم الدوافع في شيوع حديث الإفك في المجتمع هذه الرغبة الدفينة عند البعض في نشر الشائعات، والاستمتاع برواية شائعات الفاحشة وسماعها أصبحت سوقا رائجة تصرف فيها الأموال، وتُنشأ لها مؤسسات الفن ويجلب إليها أخبار الجنس وأفلام الجنس وروايات الجنس.

والكاتب الذي يكتب رواية جنسية تستثير غرائز الشباب ممن يحبون أن تشيع الفاحشة، بل هو ممن يشيعها، والذي يشتري الرواية الجنسية هو ممن يشيع الفاحشة في المجتمع، وكذلك من يعدون أفلام الجنس وينشرونها ويبذلون المال لمشاهدتها.

والواجب على من بيده سلطة حماية المجتمع من ذلك كله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

هذا توجيه عملي لمحاصرة سوء الظن وتجفيف بيئة الشائعات، فمن المعلوم أن أقوى أسبابها اختلاط الرجال بالنساء والخلوة بينهم ودخول البيوت من غير استئذان، ولهذا جاءت الشريعة بمنع ذلك والتشديد في الاستئناس والسلام.

والاستئناس: هو الاستئذان.

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

في هاتين الآيتين إرشاد إلى تجفيف البيئات التي يمكن أن تنشأ فيها جريمة الزنا، وهي مجتمع الأيامى من الرجال والنساء ممن تأخر زواجهم، والمهمشون من الرقيق والإماء، فوجهت الآيات إلى تزويجهم ومكافحة العنوسة في المجتمع.

في قوله: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور رحيم لهن، وليس لمن أكرههن.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

سبق في الآية السابعة والعشرين وما بعدها بيان أحكام الاستئذان بين المؤمنين، فبينت الآيات أن دخول البيوت لا بد له من أمرين: الاستئناس بالاستئذان، والسلام،

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وهنا بين أحكام الخدم والأطفال، الذين يخالطون أهل البيوت ويصعب التحرز منهم، فشدد على الاستئذان في ثلاثة أوقات، وهي الأوقات التي يضع الناس فيها ثيابهم، أو يبدلونها بثياب النوم، أو ثياب اليقظة.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

يقول الشوكاني: «تَكَلَّمَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى التَّوْحِيدِ لِأَنَّهُ أَقْدَمُ وَأَهَمُّ، ثُمَّ فِي النُّبُوَّةِ لِأَنَّهَا الْوَاسِطَةُ، ثُمَّ فِي الْمَعَادِ، لِأَنَّهُ الْخَاتِمَةُ»(١).

﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾:

أعظم الأدلة على وجود الله الخلق والتقدير، فهذا مما اختص الله به سبحانه، ومعظم النزاع مع المشركين هو في صرفهم شيئا من الخلق والتقدير إلى آلهتهم، ومعرفة نظام الكون يكشف عن سنن الله في الخلق، وهذه السنن تحدث أمامهم فيرون اللطف والحكمة والانضباط والاستقلال عن إرادة الناس مما لا يحيطون بعلمه ولا قدرته فيدلهم ذلك على الخالق سبحانه.

وتقديره سبحانه هو الأعلى وهو الأعظم وإليه المنتهى في التقدير، ولهذا ختم الآية بالمفعول المطلق للدلالة على ذلك.

لاحظ أن التقدير سابق على الخلق.

---

(١) «فتح القدير» (٤/ ٧٠).

خلق: أوجد، وقدر: هيأ لغاية أو عمل، فالله خلق الإنسان أي أوجده وهيأه لعبادته وعمارة الأرض.

﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾:

أي أن هذه الآلهة عاجزة عن التقدير، فملاحظة التقدير هو المفتاح لإدراك الربوبية والألوهية.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾:

ما السر الذي في السماوات والأرض وتفرد الله بعلمه؟

فسره ابن جرير بما أضمر في القلوب، وقال البغوي: هو الغيب(١). وما أضمر في القلوب من الغيب، فلا منافاة بين القولين.

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾:

تربية المشاعر واستقرار الموعظة في القلب ربما تحتاج تكرار النظر والملاحظة أو تكرار التفكر.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾:

هو لم يتب إلا لأنه آمن، فلماذا ذكر الإيمان بعد التوبة؟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٠١)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٧٢).

لعل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ - لعل هاتين الآيتين توضحان المعنى، فيكون المقصود بقوله: ﴿وَآمَنَ﴾ بعد قوله: ﴿مَنْ تَابَ﴾ الترقي في مقامات التزكي، فهناك توبة يقلع بها عن المعصية، وبعدها لا بد من مجاهدة تضبط جماح النفس وميلها إلى ما اعتادته من معصية.

ويقول علماء اللغة: أن العطف بالواو لا يقتضي التعقيب أو التراخي.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾:

من أكثر ما يؤلم الداعية –نبيا أو سواه– إعراض الناس عن دعوته، والآية تنبه النبي فمن دونه إلى هذا الأمر، وتنهاه عن الحزن بسبب إعراضهم، لأن الحزن لا يجلب نفعا للداعية ولا خيرا للدعوة، بل هو إذا تمادى بصاحبه واشتد أعاقه عن الدعوة، فهو مانع للدعاة من الانبساط مع الآخرين والتواصل معهم، فضلا عن دعوتهم ومحاجتهم وإقامة الدليل على ما معه من الحق، وعلى ما عندهم من الباطل.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾:

كان قرار فرعون منع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من تبليغ الدعوة والتهديد بالسجن إذا اتخذ إلها غير فرعون، ورد الفعل المتوقع أن يقابل هذا التهديد بتحد، وإصرار على البلاغ، ولكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يشأ أن يسلك هذا المسلك، وطرح خيارا آخر وهو عرض دليله على فرعون، ولو أن فرعون أصم نفسه عن الدليل وأعرض عنه لكان هذا

عجزا منه، ولهذا قال: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وتحول الحوار من التهديد إلى مناقشة أدلة موسى وبراهينه.

وهذا من مهارات الحوار التي ينبغي أن يتقنها من يتصدى للدعوة.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾:

هذه الآيات بدءاً من الآية (١٦) حتى هذه الآية تعرض مناظرة أو جدلا بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون، كان فيها فرعون يحاول أن يشغب على موسى ويشتت انتباه الجمهور ويصرفهم عن دعوة موسى بالقدح في الدعوة، والافتراء على الداعية، وتخويف الجمهور منه، واتهامه بسوء المقصد.

وكان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعيده كل مرة بطريقة جاذبة إلى الموضوع حتى استطاع أن يبلغ الرسالة كاملة بأدلتها إلى المدعوين.

هذه المناظرة ومراحلها وحججها مما ينبغي دراسته.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

الله سبحانه خير الماكرين، أخرج هؤلاء الظلمة من جناتهم وقصورهم ونعيمهم ليهلكهم جميعا، وقد خرجوا بكامل قوتهم فما بقي منهم أحد، وأورث بني إسرائيل -الطائفة المستضعفة- ملكهم ونعيمهم وجناتهم.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾:

من أبسط ما ينبغي أن يجده العابد فيمن يعبده أن يسمع دعاءه وعبادته فيستجيب له وأن يكون قادرا على نفع عابديه ومضرة منكريه، فإذا كان فاقدا لذلك فلا معنى لعبادته، لأنه ليس إلها مستحقا للعبادة.

وهذا دليل التجربة والخبرة على بطلان عبادة الأصنام.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾:

هذا من أعظم صفات الإله الحق، فهو خلق ويهدي مَنْ خلقه ولا أحد غيره يهدي، ولهذا أرسل الرسل وأقام الأدلة على ألوهيته وربوبيته سبحانه كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

والأدلة التي أقامها سبحانه ثلاثة أدلة:

١- دليل العقل.

٢- ودليل الخبرة والتجربة، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾.

٣- ودليل الحس.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

هنا إشارة إلى دليل من أدلة إظهار الحق، وهو شهادة أهل الاختصاص، فإذا شهد أهل الاختصاص الموثوقون على شيء فهو حق وشهادتهم مقبولة يحتج بها.

سورة النمل

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

ما ذكر هنا عن القرآن وأنه هدى للمتقين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالغيب، مطابق لمطلع سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ...﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾:

الإيمان بالآخرة يضبط السلوك حيث يوقن العبد أنه محاسب على عمله الحسن والسيئ، فإذا فقد هذا الضابط أصبح الشخص يتخبط في سلوكه لا يبالي بما فعل، ولهذا لا ينبغي أن يغيب الحديث عن الآخرة والحساب والجنة والنار عن مناهج التربية وأحاديث المربين ووعظهم، وكل منهج تربوي لا يتضمن هذه المعاني فهو خداع.

وكذلك ينبغي أن يتضمن المنهج التربوي تطبيق هذه المعاني وربط السلوك الدنيوي بالثواب الأخروي، كثيرون من الآباء والمعلمين يربطون السلوك الدنيوي

بالنجاح الدنيوي، وهذا ربما ينتج ناجحا في مهنته أو عمله، ولكنه ربما يفتقد الجانب الأخلاقي، فالأخلاق لا تستقيم بدون ركنها الغيبي.

الذي يلتزم بالأخلاق لأنه يكسب بها سوف يتخلى عنها غالبا إذا علم أنه سوف يخسر، والالتزام الحقيقي بالأخلاق يكون إذا التزم بها صاحبها في السر والعلن والربح والخسارة، وهذا لا يكون إلا إذا ارتبط الخلق بالثواب الأخروي ورضا الله الذي يطلع عليه في كل أحواله.

وأعظم درجات الخلق حينما يمتلئ قلب العبد من الحياء من الله سبحانه فيجتنب السيئ حياء من الله، ويفعل الحسن حياء من الله عَزَّوَجَلَّ، والقلب الحيي هو القلب الحي حقيقة ذو الخلق الحقيقي.

الذي ينشئ الحياء وتعظيم الله وخشيته في القلب هو عبادة السر، ولهذا كان السلف يوصون بها ويقولون عبادة الخلوات هي الطاردة للشهوات الماحية للسيئات.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾:

التمييز بين الحق والباطل لا يحتاج إلى إرادة، فالعقل يقتنع بالحق إذا ظهرت له الأدلة رغما عن صاحبه والنفس تستيقن الحق ولو لم يرد الإنسان ذلك، أما الإيمان بالحق واتباعه فهذا يحتاج إلى إرادة وقرار وإعانة من رب العالمين، ولربما انصرف الشخص عن الحق بعد ظهوره بسبب شهوات النفس أو الضغط الاجتماعي ومراعاة بعض الأعراف والمصالح. ولهذا كان الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسأل الله الثبات على الحق، ألا ترى بعض الناس يجادل بالباطل أمام القاضي وينازع في الحق وهو يعلم أن الحق مع خصمه ولكنه لا يعترف ظاهرا ولا يسلم له، فنفسه مستيقنة أن الحق مع خصمه، ولكنه يجحد ذلك ولا يقر به.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾:

الخبء: ما هو مخبوء أو مستور في الأرض من النبات، وفي السماء من المطر(١).

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾:

دراسة السنن الاجتماعية وأحوال الأمم الأخرى من ضرورات التأهيل القيادي.

﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾:

قال المفسرون أن الذي عنده علم من الكتاب هو وزير لسليمان يعرف اسم الله الأعظم، فدعا الله واستجاب له سبحانه، وهذا من الإسرائيليات ولا دليل عليه، فلو كان إحضار العرش بالدعاء فقط لكان النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أولى بالدعاء، وهو أحرى بالإجابة، وهو نبي فهو أعلم باسم الله الأعظم من وزيره، أيضا لو كان سليمان يريد إحضار عرش بلقيس بالدعاء لدعا هو ولما سأل جلساءه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؟

الذي يبدو لي أن عند الرجل علما خاصا استطاع به إحضار عرش بلقيس، وربما كان هذا العلم مما يتعلمه الناس في ذلك العصر.

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٦٠٤).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

ما أجمل العقل! وما أعظم هدايات الأنبياء!: فعل الحسنات أيسر وأدعى للقبول وأجمل بالبشر الأسوياء.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

بعض الأذكياء يستخدم ما وهبه الله من ذكاء في المكر بالحق وأهله والتآمر سرا على الصالحين، وفي هذه الآيات يقول الله أنه قابل مكرهم بمكر منه، وجعل مكرهم في دمار أنفسهم وقومهم.

وهذا العمل الذي فيه احتيال ومخادعة يختلف عن عمل العدو الظاهر الواضح.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾:

إجابة المضطر وكشف النازلة مما اختص الله سبحانه به، والناس تعلم ذلك بتجربتها، فإذا نزلت بهم نازلة دعوا الله وحده، وتركوا ما يشركون من دونه.

وهذا دليل متكرر من خبرتهم الحياتية على أن آلهتهم لا تنفع ولا تستجيب دعاءهم، وأن الذي يجيب دعاء المضطر هو الله سبحانه وحده.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾:

هذه الآية تفسر المراد بالسر الوارد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأرض إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ﴾:

﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ قيل في تفسيرها تتابع علمهم في الآخرة واكتمل، وقيل ضعف واضمحل وقيل اختلط وتناقض.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

هنا إشارة إلى أن نفي الشيء والتكذيب به لا يكون إلا عن علم ولا ينبغي أن يُكذِّب الإنسان أو ينفي ما يجهله.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾:

هذا في يوم القيامة بدلالة الآية التي قبلها.

سورة القصص

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾:

التشييع، تقسيم المجتمع إلى طوائف وفرق واستخدام طائفة ضد أخرى أو سياسة فرق تَسُد.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾:

ما آتاه الله موسى من الحكمة والعلم هو غير النبوة، بل هو قبلها.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾:

يبدو أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل النبوة كان يقود أو يقوم بحركة إصلاح لرفع الظلم عن المظلومين، ألا ترى (الفرعوني أو الإسرائيلي) خاطبه بقوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾، وألا ترى موسى دعا ربه بأن لا يكون ﴿ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

تأمل هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾، فهؤلاء الذين ليس عندهم مرجع للتفكير والسلوك مستمد من الله هم الأكثر ضلالا، وهم أيضا ظالمون بعملهم هذا.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾:

هذه قاعدة عامة في جميع الأمم: لا يعذبهم الله إذا كفروا وعصوا إلا إذا أرسل إليهم رسولا، وهو سبحانه لا يرسل الرسول إلا حيث يجتمع الناس، ليعلم أمره، وتنتشر رسالته، فهو يبعثه في أم القرى، ولا يبعثه في المناطق النائية والقرى البعيدة عن سبل الناس.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

ملاءمة الكون بليله ونهاره للإنسان يسكن فيه ويعيش فيه دليل على وجود الخالق سبحانه، وهذا الدليل يسقط شبهة الطبائعيين، الذين يقولون: إن الخالق هو الطبيعة.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾:

هذه قاعدة عامة في تحصيل السعادة والعيشة الطيبة في الدنيا.

غاية الحياة ومحورها الذي تبنى عليها جميع أعمال الحياة وأنشطتها هو الدار الآخرة، ثم هي تدور على أمرين:

١- الإحسان إلى الناس.

٢- وتجنب الفساد في الأرض.

سورة العنكبوت

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾:

موضوع هذه السورة هو الابتلاء في الإيمان.

ابتلاء أصحاب الدعوات سُنَّة ماضية لا يكاد ينجو منها أحد، ولكن تختلف أنواع الابتلاءات وتتنوع.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾:

هذه أول نتيجة لفتنة الابتلاء، وهي تمحيص الصفوف، وبيان الصادقين من الكاذبين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾:

وهذه النتيجة الثانية وهي عقاب الله لمن يعملون السيئات ويؤذون المؤمنين، وقد فصل الله تعالى عقابهم فقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾:

هذا تنبيه عظيم للمجاهدين الصابرين على البلاء والمحن: إن جهادكم وثباتكم وصبركم لأنفسكم، والله ليس بحاجة إليه، فهو سبحانه الغني عن العالمين، فاحذروا أن تعجبوا بعملكم أو تمنوا على الله بشيء منه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

وهذه النتيجة الثالثة: وهي ثواب الله لمن آمن وتكفير سيئاتهم.

وهناك نتيجة رابعة: وهي نجاة الذين آمنوا.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

ربما أول من يعترض على الداعية ويمنعه من الدعوة أبواه، إما شفقة عليه أو لأنه خالف دينهم وجاءهم بما لا يعرفون، فما العمل إذا كان الأبوان هم من يقوم بصد العبد عن دينه؟ عليه الإحسان إليهما وعدم طاعتهما في معصية الله. جاء في سورة لقمان: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾:

هنا بيان حال العبد مع نفسه وعلاقته بإيمانه، فبعض الناس لا يصبر على الفتنة ويستعجل ثواب عبادته، فإذا أوذي أو لم ينل ما كان يؤمل نكص على عقبيه وانتكس، فهذا في الحقيقة لم يكن عابدا لله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

هنا بيان لضغوط المجتمع، حيث تزعم طائفة أنها تتحمل المسؤولية كاملة عن المؤمنين فيما يمكن أن يصيبهم إذا استجابوا لانحرافهم وتخلوا عن الحق، وفي الحقيقة هم لا يحملون خطاياهم لأن ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ولكنه الضغط على من آمن، والتقليل من قيمة الإيمان، وتسخيف اختياراتهم العقدية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾:

هذا أول مثال تطبيقي على الابتلاء: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وما آمن له إلا قليل، ومع ذلك نصره الله وعاقب الذين كفروا.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

هذه نهاية الظالمين المعاندين للرسل.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾:

جميع من يعارضون الرسل ويحاربون الدعاة يستعينون بقوى أخرى وربما تكون خارجية، وبيّن الله حقيقة هذه القوى، فهي قوى واهنة كبيت العنكبوت.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾:

الجدل مع المخالف ولا سيما إذا كان من أهل العلم لا بد أن يكون بالتي هي أحسن: في اللفظ وفي الحركة وفي عرض الحجج والأدلة، ولا بد أن يبدأ المجادل بالقضايا المشتركة مع خصمه، وذكر القضايا المشتركة يقرب الخصم ويضيق شقة الخلاف، ويجعل الخصم يلتفت إلى جوانب الاتفاق ويعظمها، بدلا من تركيز الذهن على جوانب الخلاف.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

فريقان يستعجلان العذاب:

١- الكافرون ومحاربو الدعوة، تكذيبا بالعذاب واستهانة به.

٢- والمؤمنون، ثقة في نصر الله وأملا في الفرج من الابتلاء وأذى المشركين.

ولكن العذاب له أجل محدد، وهو سوف يأتي هؤلاء بغتة من حيث لم يحتسبوا، وكما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾.

﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾:

هنا تتناول الآيات خيارا بديلا للدعاة والمصلحين، وهو خيار الهجرة من أرض الابتلاء إلى بلاد أخرى يبلغون فيها دين الله.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾:

هذا دليل الخبرة والتجربة على وجود الله سبحانه وبطلان عبادة غيره.

سُورَةُ الرُّومِ

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾:

هذه آية كاملة يتبعها سكتة من القارئ فكأنها عنوان كبير لما سيأتي بعدها من تفصيل، عنوان ينقل للسامعين حدثا كبيرا ربما كان خارج توقعاتهم.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾:

لماذا الحديث عن معركة بين الروم والفرس، خارج جزيرة العرب، ومن غير تمهيد: ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾؟ وحدد مكان المعركة وعدد سنوات الهزيمة وحدد متى ينتصرون على عدوهم؟

قضية ملفتة للنظر، ومع هذا الاحتفاء بقضية الروم لم يذكر خصمهم لا إشارة ولا تلميحا.

في الآية بشارة للمؤمنين بنصر الله، وهذا النصر الذي أضافه الله إلى نفسه تشريفا له وذكر أن المؤمنين يفرحون به، ليس نصرا عاديا بل هو نصر عظيم للمؤمنين المستضعفين، وقد تحقق في غزوة بدر وسمى الله هذه الغزوة بالفرقان تعظيما لشأنها.

فهل مناسبة انتصار المؤمنين في بدر كانت سببا لذكر غزوة الروم؟ أم إنّ الأمر أبعد من ذلك؟

السيرة تفيدنا باهتمام المؤمنين وقريش بمعركة الروم والفرس، وفرح قريش بانتصار الفرس على الروم لأنهم كقريش ليسوا أهل كتاب.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾:

سياق هذه الآيات غريب ولا أظنه يوجد في غيرها، فكل آية تبدأ بجار ومجرور ومتعلقه في الآية التي قبلها، في الأولى المتعلق مكاني: ﴿فِى أَدْنَى الْأَرْضِ﴾، وفي التي بعدها زماني: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾، وفي الأخيرة خبر عظيم وبشرى للمؤمنين المستضعفين، وكل هذه مشوقات ومثيرات للانتباه لهذا الأمر الذي تقصه علينا السورة: تمهيد بغزوة بدر ولنصر الله دينه.

وكأن الآيات تنطوي على افتراض محاورة مع السامع، كأن السامع لما سمع قوله تعالى غلبت الروم كأنه قال أين؟، فجاء الجواب في أدنى الأرض، ولما قال: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ سأل السامع متى؟، فجاء الجواب: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾، ولما قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كأن السامع سأل بماذا؟، فجاء الجواب: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

هذا تأكيد لما ذكر من النصر وفرح المؤمنين به وغلبة الروم، فما ذكر هو وعد من الله، وهو سبحانه لا يخلف وعده، فهو حق فاطمئنوا.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾:

هذا إسقاط لمفهوم علمانية الدولة التي تفصل بين الدين والحكومة أو الدين والدنيا، هؤلاء الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم غافلون عن الآخرة وصفهم الله بأنهم لا يعلمون، قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

كأن هذه الآية تشير إلى أن النصر سواء كان نصر المؤمنين أو نصر الروم لا توجد له مؤشرات مادية واضحة، فالمعنيون بدراسة المؤشرات ودراسة المستقبل لا يدركونها، بل يرون غيرها مما يشير إلى ضدها، وسبب ذلك غفلتهم عن الآخرة وسنن الله العظيمة وانشغالهم بالأمور المادية فقط.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾:

تأمل قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، هذا درس في الواقعية وعدم المبالغة سواء بالنفي أو بالإثبات، فالناس فيها من يفي بالوعد، وفيها من ينقضه، وفيها من ينيب إلى الله، وفيها من يعصيه.

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

هذا دليل الحس على وجود الله.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

المعاصي سبب فيما يصيب البيئة في البر والبحر من دمار، ومن أجل إصلاح البيئة لا بد من تصحيح سلوك الناس، فينطلق من قاعدة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

ويضبط السلوك قاعدتان تستندان إلى العبودية لله عَزَّوَجَلَّ:

الأولى: عدم الإسراف، يقول الله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، ولهذا لن يسرف المسلم في الصيد أو الاحتطاب أو استهلاك المياه أو في الطعام والشراب.
والثانية: إحسان العمل، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ إغراء بدراسة القرآن والعناية به، ففيه العلم، وفيه الهدى، وفيه بيان حال الناس، فأولى لهم أن يعودوا إليه ويتدارسوه.

سورة لقمان

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ۝٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

هذه الآيات الثلاث تأكيد للمعاني الواردة في مطلع سورة البقرة: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهذه المعاني تكررت في مطالع عدد من السور منها النمل والسجدة.

في سورة البقرة قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهنا قال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾. وفي كلتا السورتين كانت صفات المتقين والمحسنين واحدة، في البقرة ذكر أنهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وفي هذه السورة ذكر أنهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وكلا المحسنين والمتقين ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهذا يفيد أن التقوى والإحسان متلازمان، والإحسان يتضمن إحسان العمل وتقوى الله سبحانه، وهذا معنى قلبي غيبي، وورد في الحديث الصحيح تعريف الإحسان بتعريف يتجاوز ضبط العمل الظاهر إلى العناية بعمل القلب: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[(١)].

وربط الإحسان بالتقوى يفيد أن صلاح الباطن ليس حقيقة إذا لم يرتبط بصلاح الظاهر، اللهم أصلح بواطننا وظواهرنا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾:

﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يشمل كل حديث أو عمل أضل الناس عن سبيل الله من الغناء وغيره كالتمثيل، والحديث فيما لا ينفع في دين أو دنيا، وللشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام حسن نافع في بيان لهو الحديث فاطلبه هناك في تفسيره لهذه الآية.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أعظم قضية بعث بها الأنبياء هي التوحيد، ومن أجله شرع الله القتال وندب المسلمين إلى بذل نفوسهم والاستشهاد في سبيله فاشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة تعظيما

(١) «صحيح البخاري» (٥٠).

لشأنه، ومع ذلك لو جاهد الأبوان ابنهما في الدعوة للشرك فوصية الله له ألا يطيعهما، وأن يصاحبهما في الدنيا معروفا، فيحسن إليهما، ويترفق بهما، ويخدمهما ويكرمهما.

وهذا كله دليل على عظيم حق الوالدين في الإسلام، وإذا كان هذا ما ينبغي عمله مع الوالد المشرك الذي يهدم عقيدة التوحيد ويدعو إلى دين غير الإسلام فحق الوالد غير المشرك ألزم، والبر به أولى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾:

تأمل طريقة القرآن في تعليم توحيد العبادة: بدأ أولا بذكر قدرته سبحانه في الخلق ومظاهر ربوبيته، ثم علل ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل.

توحيد العبادة لا يستقر في القلب إذا لم يستقر فيه تعظيم الله سبحانه، فالبداية الحديث عن ربوبيته عَزَّوَجَلَّ، وقدرته الباهرة، وتفرده بالخلق، وتصريف الكون، ثم يكون الحديث عن تفرده بالألوهية.

سورة السجدة

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

مطلع السورة يشبه مطلع سورة البقرة ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

تكرر نفي الريب في القرآن ومعظم الآيات تدور حول أمرين:

الأول: نفي الريب عن القرآن، فهو حق منزل من عند الله لا ريب فيه.

والثاني: نفي الريب عن يوم القيامة، فهو آت لا ريب فيه.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾:

هذه الآية ردت على الذين يقولون: «ما عبدناك طمعا في جنتك، ولا خوفا من نارك، ولكن لأننا أحببناك». والصوفية يروون هذا عن رابعة العدوية وذي النون المصري.

كما أنها تفيد أن الخوف من النار والطمع في الجنة من العبادات القلبية، ولهذا أثنى الله عليهم بهذا، وهذه المشاعر القلبية أصبحت عبادات لما بعثت على العمل، ألا ترى أنهم كما أخبر الله عنهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع ويدعون الله مستعيذين من النار سائلين الجنة؟. أما المشاعر التي لا تبعث على العمل وتعظيم الله سبحانه فهي دعاوى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

في قوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دليل على أن الخوف والطمع المذكورين في الآية قبلها عمل من أعمال القلب.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾:

الصبر هو طريق الإمامة في الدين، والصبر هو صبر على أداء العمل، وصبر على ما يعارضه من عقبات ومثبطات، وصبر على الأذى من المعارضين والحاسدين، وصبر على البلاء الذي يصيبه في بدنه وماله وأهله من أقدار الله سبحانه كالمرض والفقد.

والعلماء كابن القيم ذكروا ثلاثة أنواع للصبر؛ وهي:

١- صبر على الطاعة.

٢- وصبر عن المعصية.

٣- وصبر على البلاء[١].

وهذا الصبر عام في حياة المسلم، فهو أي المسلم بحاجة إلى استحضار هذه الأنواع الثلاثة، ولكن الصبر في الدعوة يحتاج إلى تفصيل فيصبر على أداء الدعوة فيبقى فيها لا يتركها، ويخطط لها، ويطور أعماله فيها، ويصبر على العقبات والموانع في الدعوة،

(١) ينظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٢٦٥).

سواء كانت عقبات عامة في حياته، أو لها علاقة بمن يدعوهم، ويصبر على البلاء العام الذي يمكن أن يصيبه، والبلاء أنواع: منه البلاء بالنعم، ومنه البلاء بما يكرهه الإنسان، كالفقر والمرض وفقد المحبوبين ومن يعاونه في الدعوة.

سُورَةُ الأَحزَابِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

تناولت السورة علاقة المؤمنين بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلاقتهم ببيته وزوجاته وأنهن أمهاتهم، ونظمت العلاقة بين الرسول وزوجاته فهو لا يتبدل بهن من أزواج ولو أعجبه حسنهن، كما تناولت المنافقين وصفاتهم وطرق كيدهم للمسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾:

هذه الآيات الثلاث تتناول العلاقة بين الجماعة المؤمنة والكافرين والمنافقين وتحذر من طاعتهم، فالله سبحانه هو الأعلم والأحكم، وهو عَزَّوَجَلَّ الخبير بأحوالنا وأعمالنا، فيجب اتباع ما أنزل.

وعلى المؤمنين أن يتوكلوا على ربهم، فهو حافظهم وناصرهم، وكفى به وكيلا سبحانه.

وفي السورة حديث عن المنافقين وموقفهم في غزوة الخندق.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

هذا شأن المنافقين في كل عصر: إشاعة الوهن والخذلان في الأمة وتفتيت الصف والتشكيك في الدين.

﴿يَانِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾:

هاتان الآيتان تتحدثان عن نساء النبي وهن زوجاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وخاطبهن الله بأهل البيت، فزوجاته من أهل بيته، وهن ممن أذهب الله عنهن الرجس وطهرهن تطهيرا.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾:

هذه الآية العظيمة دليل على تنوع أعمال الخير، وأن كل عبد يأخذ منها ما يناسب طبيعته وما يطيقه، ولا ينكر أحد على أحد في مستحبات الأعمال إذا أدى الواجبات.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾:

الذين يعترضون على حكم الله أو يفضلون سواه عليه قد عصوا الله وضلوا ضلالا بينا ظاهرا.

ويدخل في ذلك من ينتقد بعض ما جاءت به الشريعة من شرائع الإسلام وشعائره الظاهرة، كالحجاب وأحكام الميراث.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾:

لو كان ﷺ تقدم لخطبة زينب بعد أن طلقها زيد لقال الناس هذه رغبة منه فيها، ولكن الله طلقها من زيد، وزوجها رسوله فليس له إرادة في ذلك، وسبحان العليم الحكيم.

أما قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فهو ما أبداه الله أي أظهره في هذه الآية، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾.

والآيات الثلاث بعد هذه الآية هي لبيان هذا المعنى وبيان الحكمة من تزويج الرسول زينب، وهي إبطال التبني.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾:

الله سبحانه أباح لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الزواج بتسع ولكنه منعه من طلاقهن والزواج بغيرهن.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾:

في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ مقصد عظيم ينبغي مراعاته في علاقة الرجال بالنساء، فكل ما يكدر طهارة القلب من حركة أو مظهر أو كلام ينبغي تجنبه.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾:

طاعة السادة والكبراء من أكبر المعضلات داخل المجتمعات، ومن أعظم معوقات الدعوة والمثبطات عن بيان الحق وإنكار المنكر والأمر بالمعروف، وأبطل الله الاحتجاج بسطوتهم فذكر دعواتهم: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، ذلك لأنهم تبرأوا منهم.

سُورَةُ سَبَإٍ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾:

قضية البعث من أكبر القضايا التي استنكرها المشركون، هنا قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾، وفي آية أخرى قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، وفي هذه السورة كان بعضهم يتحدث إلى بعض ويتعجبون من رجل ينبئهم أنهم يبعثون إذا مزقوا وفنوا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾:

داود وسليمان ويوسف عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الأنبياء الذين جمع الله لهم بين النبوة والملك، ولم يصب قومهم عذاب الاستئصال، وملاحظة هذا الأمر في دراسة سيرتهم مهم.

تأمل ما يعمله الجن لسليمان، من مساجد، وتماثيل، وجفان كبرك الماء، وقدور ضخمة كبيرة راسية لا يمكن تحريكها، لتعلم عظمة ملكه ومقدار الحضارة التي بلغتها الدنيا في عهده عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾:

هذه الآية دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب، وتعلق الناس بالسحرة والعرافين والكهان لأنهم يظنون أن الجن يعلمون الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾:

قص الله علينا خبر سبأ ولم يذكر سبحانه الرسول الذي بعث إليهم، فهذا نبي من الأنبياء الذين لم يذكر الله خبرهم في القرآن وكما قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾:

المترفون هم من يتولى كبر معارضة دعوة الأنبياء، ثم يأتي بعدهم الأتباع.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾:

هذه طبقية اجتماعية أو اقتصادية، وهي باطلة، ولكنها مؤثرة في تفكير المشركين وسبب من أسباب معارضة الحق ورده.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾:

التفاوت الاجتماعي أو الاقتصادي ليس دليلا على الفضل، وإنما هو رزق الله لعباده، فالبعض يبسط لهم رزقه وآخرون يضيق عليهم لحكمة، وليس الغنى أو الفقر دليل فضل أحد عنده، والناس يتفاوتون بأعمالهم، لا بأموالهم أو منازلهم الاجتماعية، ولهذا يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾:

كان أعداء الأنبياء يستثيرون نخوة الناس بالحديث عن الآباء والأجداد وأن الأنبياء يريدون تغيير ديانة الآباء، والآن أصبح الوطن هو البديل لديانة الآباء والأجداد، وصار الداعية يتهم بأنه عدو للوطن.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾:

﴿التَّنَاوُشُ﴾ هو التناول الخفيف، وهذه الكلمة مستخدمة في نجد بالمعنى نفسه، ويستخدمونها في تناول البعيد الذي لا تكاد اليد تصل إليه إلا بمشقة.

سورة فاطر

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾:

تأمل الربط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، توحيد الربوبية مقدمة لتعظيم الله سبحانه، وتربية النفوس على استشعار إنعام الله والامتنان له، وينبغي للمربي ألا يفصل بينهما، فتقرير أن الله المعبود الحق لا بد أن يسبغه تقرير أنه المنعم سبحانه.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾:

تكذيب الذين كفروا للأنبياء تحدث عنها القرآن ووردت في عدد من الآيات، وبين الله سبحانه براءة الأنبياء من التقصير في البلاغ.

هنا يقول الله أن تكذيب المشركين لك ليس سببه أنت، ولا أمر متعلق بالدعوة، فالتكذيب هو ديدن المشركين، وقد كذبوا الرسل من قبلك، فتكذيبهم ليس غريبا، بل هو متوقع، وهو متعلق بهم.

في آية أخرى بين السبب فقال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، فالدعوة تمنعهم من الإجرام الذي ألفوه، وتمنع عنهم شهواتهم المحرمة ولهذا يكذبونها.

وورد في آيات أخرى أن سبب التكذيب أنهم لا يظنون أن يبعث الله بشرا رسولا، فالمسلمات الفاسدة والتصورات الباطلة والافتراضات الخاطئة حول الرسول والرسالة سبب آخر في التكذيب، وورد في آية أخرى النص على أن سبب التكذيب هو جحودهم بآيات الله، وليس سبب الجحود أنها غير واضحة أو غير مقنعة ولكنه العناد والكبر قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

وإذا فهمت ذلك فإنك سوف تفهم الآيات التي تنهى النبي من التحسر والحزن على تكذيبهم وإعراضهم: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾.

لماذا؟ لأن الرسول لم يقصر في الدعوة، فلا ينبغي أن يلوم نفسه على خطأ ارتكبه غيره ولا يد له فيه، وهذا مما ينبغي أن يعتبر به الدعاة من بعده، فليس كل تكذيب وإعراض سببه تقصير الداعية أو عجزه في البلاغ، ولكن قد يكون سببه فساد المدعوين وغلبة أهوائهم عليهم.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾:

هذه الآية توضح بعض ما أجمل في الآية رقم (٤)، فتكذيب المشركين بسبب فساد في تصوراتهم جعلهم يستحسنون السيئ، فلا ينبغي للنبي أن يتحسر عليهم ويلوم نفسه على خطأ لم يقع منه.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾:

هذه الآية مرتبطة بما ورد في الآيتين رقم (٤ و٨)، وتنفي أن يكون سبب التكذيب أمرا متعلقا بالرسالة فهي آيات بينات واضحة منيرة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾:

تأمل سعة رحمة الله وكرمه وانظر أنواع الذين اصطفاهم عَزَّوَجَلَّ وأورثهم كتابه فمنهم ظالم لنفسه بفعل المحرمات وترك الواجبات، ومنهم مقتصد، وهم أفضل من الظالمي أنفسهم، ومنهم السابقون بالخيرات، فلا يأس من رحمة الله، ولا قنوط من عفوه.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾:

وجميع هؤلاء يدخلون الجنة وينالون كرامة الله لهم.

سُورَةُ يسٓ

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾:

مقمحون: رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون خفضها.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾:

الإيمان بالغيب شرط أساسي للانتفاع بالقرآن ورد هنا وفي سورة البقرة وفي غيرهما.

وخشية الرحمن بالغيب من ثمرات الإيمان بالغيب.

وخشية الرحمن بالغيب تقتضي الإقبال على ما يحبه الله وأوجبه، والامتناع عما حرمه في الخلوة عن الناس حيث لا يراه إلا الله.

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾:

هذه حجج عقلية على اختصاص الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، فالعبادة لا تكون إلا لمن خلق ويرجع إليه خلقه فيحاسبهم، ولا تكون للعاجزين عن حماية عابديهم وعاجزين عن نفعهم.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

لا يقول الناس عادة أنهم يعبدون الشيطان، كما لا يقولون أنهم يطيعون الشيطان، ومع ذلك وصف الله عملهم بأنه عبادة للشيطان، وأخبرهم بأن نتيجة عملهم أن الشيطان أضلهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾.

والذي يبدو للناس أنهم يتخذون قراراتهم بمحض إرادتهم أو بالتشاور مع من حولهم، فمن أين أتى الشيطان وكيف أثر فيهم؟

والجواب أنه جاء من عدة مداخل: الأول من مدخل الهوى، فليس كل قرار اتخذوه ولا كل فعل هو نتيجة للعقل والبحث عن الحق، وإنما بعض ذلك راعوا فيه الأهواء، والهوى أكبر مدخل للشيطان، الثاني ضغط العشيرة أو القبيلة أو المجتمع، وهذا لا يراعى فيه الحق، كما لا يراعى فيه هداية العقل، والثالث توجيهات الملأ أو أوامرهم للأتباع، والملأ لا يراعون الحق، وإنما يراعون مصلحتهم العاجلة وأهواءهم الفاسدة.

ومما سبق نستنتج أن الشيطان لا ينفذ غوايته إلا من خلال رغبات الإنسان وأهوائه وحاجاته، أو من خلال الحمية الجاهلية والعصبية الضالة للجماعة أو القبيلة أو المجتمع أو الوطن.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾:

هذا الغلام هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي فداه الله بذبح عظيم، وأهل الكتاب يقولون: إنه إسحاق. ولا دليل معهم. والبشارة بإسحاق جاءت في هذه السورة بعد البشارة بإسماعيل وخبر رؤيا إبراهيم.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

جاءت البشارة بإسحاق بعد أن ذكر رؤيا إبراهيم بذبح ولده، وهذا حجة لمن قال إن الذبيح إسماعيل.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾:

يقول المختصون في دراسة الأديان وحضارات الشعوب إن أقدم ديانة وثنية هي عبادة الأنثى.

سورة ص

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾:

تأمل الجمع بين العزة والشقاق.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾:

تأمل كيف أصبح التوحيد ـ وهو ما تقتضيه الفطرة ـ ويدل عليه العقل أمرا عجبا مستنكرا، وسبب هذا غلبة الجهل والتقاليد الضالة والأفكار المنحرفة.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾:

هذا مثال تطبيقي على الحكم بين الناس، وهو تعليم لداود على ممارسة الحكم وإقامة العدل، ولهذا عقب الله على هذه الحكومة بقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾:

الفتنة التي تعرض لها داود هي أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الطرف الآخر، ولهذا قال تعالى ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾، وقال في الآية التي بعدها: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، فذكره أنه خليفة وأمره بالحكم بالعدل، ونهاه عن اتباع الهوى في الحكم.

سورة الزمر

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾:

إخلاص الدين تكرر ذكره في السورة فلعله هو موضوعها:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾:

أول ما يجب في إخلاص الدين ألا يكون عند العابد وسائط بينه وبين الله.

وكل من اتخذ واسطة بينه وبين الله فقد عبدها.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾:

الزعم بأن لله ولدا يتنافى مع وحدانيته سبحانه كما يتنافى مع الدين الخالص.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾:

في هذه الآية رد على فرضية أصل الأنواع لداروين أو «نظرية التطور».

فذكر الله سبحانه أنه خلق البشر من نفس واحدة، فهذا نوع من الخلق مستقل لا علاقة له بغيره، ثم ذكر أنه أنزل للبشر من الأنعام ثمانية أزواج، فالأنعام -أيا كان أصلها واحدا أو متعددا- مستقلة عن أصل الإنسان، والدراسات الحديثة أثبتت أن المخلوقات ظهرت في وقت واحد، فلا يوجد ما يسمى بتطور بعضها عن بعض.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾:

دعاء غير الله في حال السراء أو الضراء مما يتنافى مع الدين الخالص.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾:

هذه صورة من صور إخلاص الدين لله.

سورة غافر

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾:

تكرر الجدل في هذه السورة في خمس آيات، وورد فيها نموذجان من الجدل أحدهما محمود، وهو جدل مؤمن آل فرعون، والآخر مذموم، وهو جدل فرعون وتلبيسه على قومه.

أما الآيات فبينت الأولى أن الجدل في الآيات الظاهرة البينة مذموم، وهو من عمل الضالين قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾.

والآية الثانية بينت أن الجدل لا ينبغي أن يكون بالباطل، بل بأدلة صحيحة، أما من جادل بالباطل فهو مستحق للعقوبة الإلهية، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

والآيـة الثالثة بينت أن المجادل بغير دليل علمي صحيح ممقوت عند الله وعند المؤمنين، والمؤمنون هم الأكمل عقولا والعقلاء يمقتون من يجادلون بالباطل، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

والآية الرابعة ذكرت أهم دافع للمجادلين بالباطل، وهو الكبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

والآيـة الخامسة بينت أن الأهـواء تعبث بالمجادلين بالباطل، فهم ينتقلون من ضلال إلى ضلال آخر، ومن فتنة إلى أخرى، وما ينتهون إليه من الضلال والباطل هو موضع عجب من العقلاء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾:

هذا مثال على الجدل المحمود في الدفاع عن الحق والدعاة إليه.

﴿وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾:

هنا تغير خطاب الذي آمن، في السابق كان كما أخبر الله عنه يكتم إيمانه، أما هنا فصرح به وقال اتبعون أهدكم سبيل الرشاد.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾:

هذه الآية دليل على وقوع عذاب القبر.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾:

جميع الرسل بعثهم الله بالبينات التي يفهمها المخاطبون، ويعرفون بها الحق، وصدق الرسول. ومحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد هؤلاء الرسل، فكل من اطلع على رسالته وقرأ القرآن فلا بد أن يعرف الحق الذي بعث به، ويعرف صدقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا حجة له.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾:

دعاء الله عبادة، تأمل بماذا وصف من لم يدعه سبحانه، قال: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، فالدعاء لا يصرف إلا لله سبحانه، و﴿دَاخِرِينَ﴾ ذليلين حقيرين.

سورة فصلت

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾:

حينما يتعاظم الخلاف الاجتماعي تنسد قنوات التواصل، وتضعف العلاقات الاجتماعية بين المختلفين فلا يفهم بعضهم عن بعض، ومما يفتح قنوات التواصل الاجتماعي عمل الصالحات والإحسان إلى الناس بالمال.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾:

أنكر عليهم عدم بذل الزكاة مع أن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة والسورة مكية، فما المقصود بالزكاة هنا؟

قال بعض أهل العلم: أن المراد بالزكاة «لا إله إلا الله» لأنها زكاة الأنفس، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره[١].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥)، و«فتح القدير» (٤/ ٥٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

وقيل هي الصدقة، قالَ الضَّحّاكُ ومُقاتِلٌ: «لا يَتَصَدَّقُونَ ولا يُنْفِقُونَ في الطّاعَةِ»، وقالَ الفَرّاءُ: «كانَ المُشْرِكُونَ يُنْفِقُونَ النَّفَقاتِ، ويَسْقُونَ الحَجِيجَ، ويُطْعِمُونَهم فَحَرَّمُوا ذَلِكَ عَلى مَن آمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآية»[1].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾:

أيام الدنيا التي نعيشها تختلف عن الأيام التي عند الله، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾:

يفسر حالة عاد قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾، ومن طغى فلن يشكر، لأنه سوف يقول كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

ومن شكر فلن يطغى، لأنه لن يشعر أنه مستغن بقوته أو بما عنده، فمن أراد السلامة من حال عاد أو قارون فعليه بملازمة الشكر.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾:

لما كان هؤلاء يتقون طرق الهلاك وهي الشرك والمعاصي نجاهم الله سبحانه، فمن أراد النجاة فيجب أن يكون متقيا لله يتجنب ما فيه هلاكه. والتقوى ممارسة مستمرة

(١) «فتح القدير» (٤/ ٥٨٠)

تسبق المخاطر التي تعرض للعبد، فإذا وقع المحذور كانت التقوى نجاة ووقاية للعبد مما قد يصيبه.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

هذا الظن السيئ في حق الله هو سبب إعراضهم عن الحق وما اقترفوه من المعاصي، وهو من الجهل، ولكنه ليس عذرا في ضلالهم كما يعذر أهل الفترة، لأن الجهل لا يكون عذرا في وجود النذير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فمع مجيء الرسول يرتفع العذر بالجهل لمن علم به واستطاع الوصول إليه والأخذ عنه، لأنهم لو أرادوا أن يعلموا لعلموا، ولكنهم رفضوا اتباع الرسول.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾:

بسبب ما عندهم من إعراض عن الحق وإصرار على الباطل يقبل عليهم دعاة الشر من شياطين الإنس والجن يزينون لهم باطلهم، ويدعونهم إلى مزيد من الضلال والبعد عن دين الله، كزيادة مسارح وموضات جديدة ومذاهب فكرية فاسدة وأنماط من التبرج والفسق لم تكن معروفة عندهم، وهؤلاء المضلون من الجن والإنس كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾:

أعظم وسيلة للدعوة وأنجع وسيلة هي إسماع الناس كلام الله فلا هدى أعظم منه، فهو يحرك النفوس المغلقة العصية، ويفتح العقول الجامدة وينيرها، ويسقط حججها الباطلة. ولهذا يجتهد أصحاب الضلال في كل عصر أن يَحُولُوا بين الناس وبين سماع القرآن، ويلغون فيه، فيثيرون الصخب والملهيات الصارفة عنه والشبهات المشككة فيه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾:

هذه الآية توضح من هم القرناء المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

من أوضح معاني الخشوع في الآية السكون، ويضاده ما ورد في الآية نفسها: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، فالحركة الكثيرة والاضطراب منافيان للخشوع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾:

من صفات القرآن أنه كتاب عزيز، ومن عزته أنه لا يأتيه الباطل، فهو محفوظ في تنزيله وفي ألفاظه وفي معانيه، ومن عزته أنه لا يناله المبطلون فلا يدركون أسراره ولا تخالط بشاشته قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾:

وصف الله كتابه بأنه كتاب عزيز، ومن عزته أن يصرف عنه من لا يؤمنون به كبرا وجحودا.

سورة الشورى

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾:

﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يحفظ عليهم أعمالهم فيجازيهم بها.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾:

الشرائع لا يمكن أن تتعارض في أصولها ولا قيمها الأخلاقية، والاختلاف في بعض صور التعبد أو في بعض التفاصيل لا يلزم منه التعارض، لأنه من قبيل التنوع وليس التضاد.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾:

بين في الآية التي بعدها لماذا كان العلم سببا في تفرقهم فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فهم استخدموا العلم لا في الاهتداء به وإنما في تأييد أهوائهم.

وقد ورد التحذير من أن العلم قد يكون سببا في الضلال في خمسة مواطن في القرآن، وهي:

١- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

٢- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٣- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

٤- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.

٥- ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وفيها جميعا تنبيه إلى أن العلم انحرف عند هؤلاء، فلم يعد سبيلا للهداية، بل أصبح طريقا للظهور والغلبة وتأييد الأهواء.

وأخبرنا عَزَّوَجَلَّ عن حقيقة طلب العلم في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فتحصيل العلم الحقيقي سبيل إلى إخبات القلب وهؤلاء هم من يهتدون به ويستفيدون من تحصيله.

وإخبات القلب إشارة إلى أمرين:

الأول: الانقياد للعلم، بحيث يكون الهوى والمشاعر تبعا للعلم.

والثاني: العمل بالعلم.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾:

من أراد الآخرة ولم يعمل لا ينالها، وكذلك من أراد الدنيا ولم يعمل لها لن ينالها، فهذا الوعد منه عَزَّوَجَلَّ هو لمن عمل لما أراده، فالإرادة هنا ليست نية فقط وإنما هي نية وعمل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

عمل القلب لا يكون حقيقيا مؤثرا إلا إذا تحركت معه الجوارح.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾:

تفيد الآية أن بين بسط الرزق وبين البغي في الأرض علاقة طردية، وليس كل من بسط الله له الرزق يبغي، ولكن يكثر فيهم البغي، وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾، فالذين يطغون بسبب بسط الرزق هم من يتخذون ما أعطاهم الله سببا للتكبر على خلقه، ومن يشعرون أنهم بالمال أقوياء في ذواتهم مستغنون به عن عون الله لهم.

قال الله تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾:

هذه الآية جمعت أربع قضايا:

١- الراية أو المرجعية أو التشريع: استجابوا لربهم، والاستجابة لله تعني الخضوع لشرعه ظاهرا وباطنا.

٢- العبادة المحضة: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

٣- السياسة والإدارة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

٤- الاقتصاد: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

فالدين جاء لتنظيم الحياة كلها، فلا شيء يقع خارجه، والذي أمر بالصلاة هو من أمر بالشورى وتنظيم المال.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾:

أثنى الله على من انتصر إذا أصابه البغي ووقع عليه الظلم، وفي الآية التي بعدها رفع اللوم عنه فقال: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

قال الشوكاني: «فالِانْتِصارُ عِنْدَ البَغْيِ فَضِيلَةٌ، كَما أنَّ العَفْوَ عِنْدَ الغَضَبِ فَضِيلَةٌ»[1].

(١) «فتح القدير» (٤/ ٦٢٠).

سورة الزخرف

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

عربيا أي مبينا عن معناه، وهو أيضا باللغة العربية، وهذا دليل على فضل اللغة العربية فهي بهذا أكثر لغات الناس إبانة عن المعنى وأحسنها بيانا.

وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، من المعلوم أن من شروط العقل فهم الخطاب، وما لا يُفهَم لا يُعقَل.

انظر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

الفعل «جعل» يراعى فيه الملاءمة -ملاءمة شيء لشيء- والله سبحانه جعل القرآن عربيا ليلائم العقل، ولهذا «جعل» تأخذ مفعولين بينما الفعل «خلق» تأخذ مفعولا واحدا.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾:

هذا دليل على وقوع البعث بقياس حياة الأرض بعد موتها بالنبات.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾:

هذا الشيطان يزين لصاحبه الباطل، وهذا المعنى وردت الإشارة إليه في قوله تعالى:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

وبين الله هنا أن الاستجابة لهؤلاء الشياطين المضلة سبب في العقوبة المذلة.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾:

هذه الآية دليل على فضل العرب، حيث خصهم الله سبحانه بنزول الرسالة على واحد منهم وبلغتهم، وخصهم بحملها إلى الناس، فكان العرب هم حملتها الأولين، وهم قادة الأمة وسادتها وهم رواد الفتح، ومع أن الإسلام دين عالمي للناس كافة والمسلمون من غير العرب أكثر جدا من العرب إلا أنه اقترن بالعرب واقترن العرب بالإسلام، فلا يذكر أحدهما إلا ويذكر الآخر. وهذا كله دليل على فضلهم، وكل الدعوات التي تقلل من شأنهم وتنتقصهم هي دعوات شعوبية، نبتت على كراهية الإسلام وحسدا لهم لما اختصهم الله به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه.

ومع هذا العطاء والفضل العظيم فإن عليهم مسؤولية البلاغ، ولهذا قال: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾:

هذه الآية تذكر لونا من ألوان الجدل المذموم وهو ما لا يريد به صاحبه التوصل إلى الحق، وإنما التلبيس والتشويش.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

في قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إشارة ضمنية إلى رسول يأتي بعده ليبين لهم ما تركه عيسى فلم يبينه.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

ذكر من نعيم الجنة ما تشتهيه الأنفس وهذا عام في كل نعيم، وذكر أيضا ما تلذه الأعين، ولم يذكر ما يتعلق بحاسة السمع ولا حاسة الشم، وفي آيات أخرى ذكر شيئا عن السمع فأخبر أنهم لا يسمعون فيها اللغو والملائكة تحييهم بطيب القول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾، وورد في السنة ذكر غناء الحور العين لأزواجهن، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أزواجَ أهلِ الجنةِ ليُغنِّينَ أزواجَهن بأحسنِ أصواتٍ ما سمِعَها أحدٌ قطُّ إنَّ مِمَّا يُغنينَ نحنُ الخيراتُ الحسانُ أزواجُ قومٍ كرامٍ ينظرنَ بقُرَّةِ أعيانٍ وإنَّ مما يغنينَ به نحن الخالداتُ فلا يَمتنه نحن الآمناتُ فلا يخفنَه نحن المقيماتُ فلا يظعنَّه**»[(١)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الحُورَ في الجنةِ يَتَغَنَّيْنَ يَقُلْنَ: نحنُ الحُورُ الحِسانُ، هُدِينا لأَزْوَاجٍ كِرَامٍ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٩١٧)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٦١).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٤٩٧)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٧٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٠٢).

وذكر أيضا الريحان وهو من المشمومات: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، ففي الجنة نعيم لجميع الحواس.

سُورَةُ الدُّخَانِ

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾:

قيل إن تبعا ملك صالح، آمن بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على يد حبرين من أهل المدينة.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

تأمل هذه الحال التي يريدها الله سبحانه منا: فمن تقدير العلم الذي وهبه الله لنا أن نغفر لمن ليسوا كذلك، فنتجاوز عنهم إذا أخطأوا في حقنا، وقارن هذه الحال بالحال التي تردى فيها بنو إسرائيل، فإنهم اختلفوا لما جاءهم العلم بغيا بينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

سورة الأحقاف

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾:

هؤلاء كفار مشركون، وورد في الشرك أن الله لا يغفره، ومع ذلك علل عذاب الهون الذي أصابهم بأمرين: الاستكبار في الأرض وبالفسق، وهذان مناسبان لقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾. وهذا يدل على عظم هذين الجُرمين، والنصوص الواردة في مقت الكبر والمتكبرين وذم الفسق كافية في ذلك.

والشرك ربما يكون بسبب عدم بلوغ الرسالة أو بسبب شبهات، أما الكبر والفسق فلا يكون إلا بسبب فساد في النفس، وخبث في المقصد، وبينهما علاقة فلا يتكبر متكبر إلا ويفسق.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾:

في عرف الناس: المجرم هو من يعتدي على حقوق الآخرين، وهنا وصف قوم عاد بالمجرمين، ولم يذكر لهم جرما سوى الشرك، فدل ذلك على أن الشرك ليس مجرد انحراف أو خطأ، بل هو جريمة وأصحابه مجرمون، ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾:

أحد مقاصد الابتلاء هو إظهار حقيقة الإيمان وسريرة الشخص.

سُورَةُ ق

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾:

عجبوا من أمرين:

١- من إرسال بشر مثلهم رسولا يبلغهم رسالة الله.

٢- ومن البعث بعد الموت.

والأول بين الله بطلان ما توهموه من امتناع إرسال بشر في عدة مواضع من كتابه، وبين أن الرسول لا يكون إلا بشرا، أو في صورة بشر حتى يستطيع الناس الأخذ عنه.

وأما البعث بعد الموت فبين هنا أنه ممكن، وأقام الأدلة على قدرته على إعادة الخلق، واحتج عليهم بما يؤمنون به، وهو أن الله سبحانه هو خالقهم، ومن خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، وفي هذا إثبات لصحة الرسالة.

وإثبات صحة الرسالة يتضمن إثبات صدق الرسول.

سورة الطور

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾:

هنا رد على من يقول الخالق الطبيعة، ورد على نظرية النشوء والارتقاء.

سورة النجم

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾:

هذه الآية تبين أن للعادات الاجتماعية سطوة على المجتمع ربما دفعتهم لرد الحق، كما تبين أيضا أن من مصادر العادات الظن وأهواء النفوس، والأديان الباطلة جزء مما اعتاده الناس وتواضعوا عليه، إما لمصلحة عاجلة، أو لظن أو توهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾:

فلسفة العلم الحديث تفصل العلم عن الدين وعن الآخرة، ويصبح العالم مهما علت منزلته في العلم لا يتجاوز علمه العالَم المحسوس في الحياة الدنيا، وهؤلاء أخطأوا حينما أرادوا أن يكون العلم بديلا عن الدين، فالعلم له مجاله، وإذا استخدم في غير مجاله فإنه يفشل، مثلا العلم يعجز عن تقديم تفسير فلسفي للحياة، وإن شئت فقل

إنه يعجز عن الإجابة على الأسئلة الوجودية الكبرى: «من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟»؛ والذي يجيب عنها الدين فقط.

والعلم الحديث يعجز عن الإجابة على الأسئلة الوجودية لأن حدوده مرتبطة بالحس، فما أثبته الحس أثبته العلم، وما عجز عنه الحس فالعلم عاجز عنه أيضا، والحياة أو المجال الوجودي للإنسان أوسع من الحس.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾:

في هذه الآية رحمة بالإنسان ومراعاة لطبيعته البشرية، فهو مهما اجتهد وأراد الإحسان عرضة للخطأ، بسبب جهله وضعفه، ومن ضعفه نسيانه وعجلته، أيضا في تفاعله مع البيئة التي حوله سواء المادية أو الاجتماعية هو عرضة للخطأ، ونفسه تنازعه في الرغبة والرهبة، فربما زل ولهذا غفر الله له اللمم من الخطأ، وأخبر سبحانه أنه واسع المغفرة، ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ فأنتم سوف تخطئون، وهو أعلم بكم، بحاجتكم إلى المغفرة.

سُورَةُ القَمَرِ

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾:

قوم ثمود هنا لا يناقشون دليل الرسالة ولا حجة النبي، وإنما يبحثون عن القوة الاجتماعية التي تنصر الرسالة، ويرون أنهم لو استجابوا لفرد واحد لكانوا في ضلال وخبال وعناء.

سورة الواقعة

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾:

أي منسوجة بالذهب والجوهر.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾:

﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾: لا تذهب عقولهم.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾:

﴿لِلْمُقْوِينَ﴾: للمسافرين.

سورة الحديد

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾:

هذه الآية أصل في بيان مالك المال الحقيقي، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمال مال الله ونحن مستخلفون فيه، قال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾:

الإيمان شيء وقر في القلب.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾:

التصور الغربي للحياة تنافس وصراع.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

قال المفسرون عن الميزان هو العدل(١)، وبهذا يكون العدل قيمة عليا مستقلة عن الكتاب وعن سواه، يدركها الناس مؤمنهم وكافرهم، ويحكمونها فيما بين أيديهم من أعمال ونصوص، وإنزالهما معا يفيد بالعلاقة بينهما، فالكتاب يدل على العدل ويهدي إليه، ومتضمن في آياته، والعدل يهدي إلى الكتاب، فمن أخذ بالكتاب فلا بد أن يعدل، ومن كان عادلا في فكره ونفسه فلا بد أن يهتدي إلى الكتاب، وهو القرآن.

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢١٢).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾:

النصارى دفعتهم عاطفة التدين إلى الزيادة عما أمرهم الله به، رغبة في رضوان الله، ولكنهم لم يستطيعوا الاستمرار بما ألزموا أنفسهم به، وصارت هذه الزيادة سببا في فساد عريض في المؤسسة الكنسية، ومصدر انحراف في الدين المسيحي.

الله أعلم بعباده، وأعلم بما يصلحهم وبما يطيقون، ومن ألزم نفسه بشيء من المندوبات فيجب عليه ألا يتخطى حدود الشرع، وينبغي له ألا يأخذ بالسقف الأعلى، ويقبل بالرخص التي شرعها الله له، ففيها صلاح نفسه، ودوامها على العبادة، ومما يذكر هنا خبر عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في القيام والصيام[(١)]، وخبر الثلاثة الذين سألوا عن عبادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقالوها[(٢)]، وجميعهم دلهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الوسط والعدل، وقال: «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(٣)]. فسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ بالرخصة كما هي أخذ بالعزيمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

قال المفسرون عن الكفلين: هما نصيبان من الأجر، ثم قالوا: أحدهما أجر الإيمان بجميع الأنبياء وأجر الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أجر الإيمان وأجر التقوى، أو أجر فعل الأوامر وأجر اجتناب المنهي عنه[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٧٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، «صحيح مسلم» (١٤٠١).
(٤) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢١٤)، و«تفسير السعدي» (ص٨٤٣).

سُورَةُ المُجَادلَةِ

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

تأمل: النجوى من الشيطان وهي تحزن من لم يشارك فيها، ولهذا ورد النهي عن تناجي اثنين دون الثالث.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

ورد في هذه السورة صفتان للتمييز بين حزب الله وحزب الشيطان:

الصفة الأولى: لعل أكبر علامة تميز بين من استحوذ عليه الشيطان فصار من حزبه ومن لم يستحوذ عليه هي ذكر الله، فمن نسي ذكر الله فهو من حزبه واستحوذ عليه، ومن كان يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو من حزب الله، وقد قيل من أحب شيئا أكثر من ذكره، فمن أحب الله سبحانه أكثر من ذكره في خلواته، ومن غفل عن ذكره واشتغل فكره بغيره فلا بد أن يلهج لسانه بما استولى على فكره.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

الصفة الثانية: الولاء والبراء، فحزب الله لا يوالون من حاد الله ولو كان أقرب قريب لهم.

وإذا كان الفرق الأول يكشف عما في دخيلة النفس وما استولى على الفكر فإن هذا الفرق يكشف عن العلاقات الاجتماعية، فمن كانت علاقاته الاجتماعية مع من حاد الله يودهم ويأنس بمجالستهم فهو ليس من حزب الله، بل من حزب الشيطان.

وفي الآية لطيفة أخرى وهي: أنه يجب على المؤمنين أن يكونوا جماعة مترابطة في نصرهم وقوتهم في هذا التكتل، والجماعة علاقات ووجود الأفراد في مكان واحد لا يجعل منهم جماعة إلا إذا نشأت العلاقات بينهم، وإلا فهم مجرد أفراد، والإسلام جاء بالحث على العلاقات الجماعية، فإفشاء السلام فيما بينهم، وتبسم المسلم في وجه أخيه، وإجابة دعوته إذا دعاه، والإحسان إلى الجار وحفظ غيبته كل هذه من العلاقات الجماعية المحمودة.

وجاء الإسلام أيضا بنفي ما يضاد الجماعة ويوهن قواها ويضعف أواصرها، ومن ذلك النجش، والغيبة، والنميمة، والبيع على بيع أخيه، والخطبة على خطبة أخيه.

سُورَةُ الحَشْر

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾:

اللينة: النخلة.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

يتكرر في صفات المؤمنين في القرآن كثيرا بذل المال والطعام لله عَزَّوَجَلَّ، فهذا من أعظم صفات المؤمنين الظاهرة، فمن أراد النجاة من النفاق فعليه أن يبذل الطعام، ومن أراد تزكية نفسه فعليه أن يبذل الطعام.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

هذه صفة منهجية من صفات المؤمنين، وهي محبة من سبقهم في طريق الإيمان والترضي عنهم وتعظيمهم والدعاء لهم، فهم يرون أنفسهم امتدادا لهم يكملون

عملهم، ويرونهم أسوة لهم، ولا تجد أصحاب بدعة إلا وتراهم يطعنون في سلف الأمة، ويهونون من شأنهم، وفي قلوب بعضهم حسيكة بغض لهم، إن ذلك ليس من شأن المؤمنين المتقين، وفي الآية إشارة إلى أن جماعة المؤمنين ممتدة في الزمان والمكان، يحب بعضهم بعضا، ويترضى بعضهم عن بعض، ويفرح بعضهم بما يصيبه بعضهم من خير ونصر، وينصر بعضهم بعضا.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

التفكر عبادة، بل من أجل العبادات، فالله ضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون، وأظهر لهم من الآيات الدالة على عظمته لعلهم يتفكرون، وأنزل الآيات المتلوة لعلهم يتفكرون.

والتفكر هو اكتشاف علاقات، وإدراك حِكَم ومقاصد في الخلق والتشريع، وبه يزداد الإيمان.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

هداية القلب جواب الشرط، وهو الإيمان بالله.

تأمل ذكر هداية الله للقلب بعد ذكر المصيبة، وعلاقة هداية القلب بالإيمان، فمن أراد الثبات في المصائب فعليه الإكثار من أعمال الإيمان في وقت السعة وقبل وقوع المصيبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما كان التحذير من الأزواج والأولاد فيما فيه ضرر قد يوهم بالغلظة عليهم، أمر الله بالعفو والصفح عنهم، لما في العفو والصفح من الخير العظيم[1].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٨٦٨).

سُورَةُ التَّغَابُنِ

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

هذه فتنة المال والولد، وعلاجها كما في الآية التي بعدها في ثلاثة أمور:

١- التقوى.

٢- الانقياد لما أمر الله به أو السمع والطاعة لما أمر الله به.

٣- الإنفاق في سبيل الله.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذه الآية قاعدة عامة، وهي أن كل ما عجز عنه العبد يسقط عنه[1]، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإذا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ**»[2].

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٨٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٢٨٨).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾:

أمران حددهما الله وبينهما بما يضبط سلوك الناس ويمنع الجهالة والغرر.

الأول: المواريث، قسمها سبحانه وحدد لكل فرد نصيبه.

والثاني: الطلاق، وعدة المطلقة من النساء، وحقوق المطلقات.

بين الله تعالى عدة المطلقة وحقوقها، وحدد لذلك علامات حسية تضبط العدة، وعدد حالات الطلاق، وهذا حفظ لحقوق المرأة، وصيانة للأنساب، وحفظ للبيوت وما نتج عن الزواج من ذرية، وإدامة للود بين الناس.

المواريث مظنة لشح الأنفس وتنازعها، ومظنة لظلم القُصّر، ولهذا قسمها الله سبحانه بنفسه، ولم يتركها لأحد من خلقه.

والطلاق غالبا حالة خلاف بين الزوجين، فهو مظنة لكيد أحدهما للآخر، وقد ينتج عنه اختلاط الأنساب، ولهذا حدد الله سبحانه عدد الطلاق وأحوال المطلقات وعدة كل حالة وربطها بالحس.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾:

تأمل تكرار الحديث عن التقوى في أمر الطلاق.

سورة التحريم

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾:

الله أخبر أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة للمؤمنين فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. ولهذا عرض الله في القرآن حالات الخلاف داخل بيت النبوة، وبين طريقة علاجها، ليتأسى المؤمنون بذلك. والرسول جاء مبينا للشريعة مبلغا الرسالة، وحياته ظاهرة لا خفاء فيها، سواء كانت داخل بيته أو خارجه، والعلم بحياته الخاصة ليس من نوع الشائعات، أو مما يتناقله الرواة ويهمس به الناس، بل هو قرآن يتلى، ووحي أنزله الله يتلوه المؤمنون في صلواتهم.

وإنك لن تجد حياة أوضح من هذه الحياة، ولا أنقى ولا أطهر ولا أكمل منها، وهي مع ذلك حياة واقعية بشرية، يقع فيها الغضب والخلاف بين الزوجين، أو بين الزوجات أمهات المؤمنين، ثم هم يعالجون هذا الخلاف، ويفقأون الغضب بما يعيد السلام إلى البيت، والسعادة إلى أعضائه، وفي كل ذلك للمؤمنين أسوة حسنة.

سُورَةُ المُلْكِ

﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾:

القدرة الحقيقية تكون لمن خلق الموت والحياة، وهو وحده سبحانه المستحق للعبادة.

الحياة ميدان لإحسان العمل، والعمل الحسن ليس هو ما يتعلق بالعبادات فقط بل شامل جميع أعمال الإنسان، وهو في ذاته إذا أراد به العبد وجه الله عبادة يثاب عليها، فهذه الآية تحمل قيمة حضارية في بناء الحياة، وهي شعار للحياة كلها، وينبغي أن يكون إحسان العمل عبادة يتقرب بها المسلم إلى خالقه عَزَّوَجَلَّ وغاية يتغياها، فلا يرضى بما دونه.

وهذا الشعار ينبغي أن يكون في مناهج التربية والتعليم، يتربى عليه النشء، ويكون روحا تسري في الأمة.

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾:

تهيئة الأرض للخلق حتى يعيشوا عليها دليل على وجود الخالق سبحانه، وهو يتناقض مع نظرية التطور، نظرية التطور تناولت تكيّف المخلوقات مع بيئتها فينشأ لها مثلا زعانف وخياشيم في البحر، وإذا أصبحت برية تتحول الزعانف فتكون أجنحة يطير بها الحيوان، ما تذكره الآية مختلف عن هذا، الآية تقول إن الأرض ذللت وهيئت للإنسان ليعيش عليها قبل أن يستوطنها، فالذي خلق الأرض يعلم ما المخلوقات التي سوف تعيش على الأرض وماذا تحتاجه، ولهذا هيأ لها الأرض وجعلها مذللة لساكنيها.

الطبيعة أو الأرض لا تدري عمن يمكن أن يعيش عليها ومع ذلك كانت ممهدة مهيئة له لأن الذي خلقها سبحانه يعلم ماذا خلق، تهيئة الأرض لمن يعيش عليها مفهوم مختلف تماما عن تكيف المخلوقات للعيش في الأرض أو بيئات مختلفة.

سُورَةُ القَلَمِ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:

الخُلُق لا يكون خُلُقا إلا إذا كان سجية ثابتة، وهو يكون أول الأمر تخلقا، ثم يكون خلقا. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**»[(١)]، فهذا هو الطريق لاكتساب الخلق، فهو في أول الأمر يحتاج إلى مجاهدة ومران، ثم يكون طبعا وسجية.

وبعض الناس يكون خلقه طبعا وسجية طبعه الله عليه، كما في حديث الأشج بن قيس[(٢)]، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طبعه الله على خير الأخلاق وأحسنها وأعلاها، ووصف خلقه بأنه عظيم.

ومَنْ كان كذلك فهو لن يكذب أو يغش أو يخون ويدعي ما ليس له، فهو صادق في رسالته، مؤد ما أوحي إليه بأمانة.

---

(١) «المعجم الأوسط للطبراني» (٢٦٦٣).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٥٣٤٢).

سورة المزمل

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾:

كثرة مشاغله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النهار وتعبه الطويل لم يكن سببا لإعفائه من قيام الليل، بل كان السبب لفرضه عليه لأنه لا يجد الوقت للتلاوة في النهار، وبين الله أن قيام الليل وتلاوة القرآن أعظم أثرا في القلب، وأزكى للنفس.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾:

هذه الآية هي موضوع السورة، ماذا ينبغي للداعية أن يعمل في مواجهة المكذبين المعاندين؟

١- الاجتهاد في الدعوة: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

٢- قيام الليل وتلاوة القرآن: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

٣- الصبر: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.

٤- عدم الرد عليهم والاستمرار في الدعوة: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، والهجر الجميل هو الذي لا أذية فيه.

أما من يكذب بالدعوة ويعاند الدعاة ويؤذيهم فالله هو من يقتص منه، قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فالانتقام منهم وإنزال العقوبة بهم ليس من شأن الداعية، والله سبحانه يتولى ذلك وينتصر لدينه ولعباده المؤمنين.

سورة القيامة

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾:

الإنسان في هذه السورة المراد به الكافر.

سورة الإنسان

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾:

الإنسان في هذه السورة ابن آدم سواء كان مسلما أو غير مسلم، وفصّل فيهما فذكر أنهما قسمان: شكور، وكفور.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾:

لعل هذه الآية أوضح آية في بيان أحد معنيي الهداية: وهنا معناها الدلالة والبيان، والتوضيح، والمعنى الآخر قبول القلب للحق.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾:

الأصل في الأسير أنه كافر، لأن الأسير لا يكون إلا من حرب، ومع ذلك مدح بذل الطعام له، وعلى هذا فبذل الطعام لكل أحد: مسلما كان أو كافرا مما يحمد في الشريعة.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾:

في هذه الآية دليل على أن المحسن لا يطلب ممن أحسن إليه شيئا، بما في ذلك الدعاء.

سورة النازعات

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾:

قال البغوي: سمكها: سقفها، وقال ابن عطية: السمك الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا، وبين سطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها(١).

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾:

﴿أَغْطَشَ﴾: أظلم.

سورة الليل

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾:

الأعمال الصالحة سبب في هداية صاحبها للخير ومزيد من العمل الصالح، والأعمال السيئة سبب في عسر العمل الصالح على صاحبها -والعياذ بالله-.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣٢٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٤).

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾:

الجزاء من جنس العمل، والأعمال الصالحات لها أخوات عند صاحبها، والأعمال السيئة لها أخوات عند صاحبها.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾:

هذه منزلة عالية لم ينلها أحد من الناس اختص الله بها أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبشهادة القرآن أبو بكر هو الأتقى، وبشهادة القرآن ليس لأحد منة أو يد على أبي بكر، بل هو المحسن دائما، وهو صاحب اليد العليا أبدا، وهذا لعمر الله لا يكاد يطيقه بشر، ولكنها نعمة الله التي اختص بها أبا بكر.

وأبو بكر هو صاحب رسول الله المثبت في القرآن، وهو من أخبره الرسول في قرآن يتلى بأن الله معهما، فما أعظم هذا الفضل الذي خص الله به أبا بكر، فأي إيمان وقر في قلب أبي بكر فاق به الثقلين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُورَةُ الفَلَقِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾:

الاستعاذة هنا من أشياء تلحق بالإنسان ضررا ماديا، أو ضررا بالبدن غالبا، وهي ما يظهر في الليل ومن الساحرات وحسد الحاسد، ولهذا ناسب الاستعاذة بالرب الخالق المتصرف سبحانه، فهو ربما يمنعها إذا شاء عَزَّوَجَلَّ.

سُورَةُ النَّاسِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾:

الاستعاذة هنا من الوسواس الذي قد يشكك الناس في دينهم وإلههم، ويتسبب في الضرر المادي والمعنوي، والضرر في الدين والدنيا، فناسب الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم، أي معبودهم المستحق للعبادة سبحانه.

طبيعة المجتمع المسلم في القرآن وقواعد في الحياة العامة

✧ مجتمع يعمل الصالحات:

﴿فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا فِطرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ﴾.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذينَ خَلَوا مِن قَبلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبديلًا﴾.

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَم يَكُ مُغَيِّرًا نِعمَةً أَنعَمَها عَلى قَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِم وَأَنَّ اللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ﴾.

﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ يَحفَظونَهُ مِن أَمرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِم وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَومٍ سوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُم مِن دونِهِ مِن والٍ﴾.

﴿استِكبارًا فِى الأَرضِ وَمَكرَ السَّيِّئِ وَلا يَحيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إِلّا بِأَهلِهِ فَهَل يَنظُرونَ إِلّا سُنَّتَ الأَوَّلينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبديلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحويلًا﴾.

﴿وَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ افتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَو كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفلِحُ الظّالِمونَ﴾.

﴿يُخادِعونَ اللَّهَ وَالَّذينَ آمَنوا وَما يَخدَعونَ إِلّا أَنفُسَهُم وَما يَشعُرونَ﴾.

﴿إِنَّ المُنافِقينَ يُخادِعونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قاموا إِلَى الصَّلاةِ قاموا كُسالى يُراءونَ النّاسَ وَلا يَذكُرونَ اللَّهَ إِلّا قَليلًا﴾.

✧ وصفة للفلاح:

✧ التقوى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ﴾.

✧ أكل الحلال:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا لا تَأكُلُوا الرِّبا أَضعافًا مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ﴾.

✧ تجنب خطوات الشيطان:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِنَّمَا الخَمرُ وَالمَيسِرُ وَالأَنصابُ وَالأَزلامُ رِجسٌ مِن عَمَلِ الشَّيطانِ فَاجتَنِبوهُ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ﴾.

✧ ذكر الله سبحانه:

﴿وَاذكُروا اللَّهَ كَثيرًا لَعَلَّكُم تُفلِحونَ﴾.

✧ شكر نعم الله سبحانه:

﴿أَوَعَجِبتُم أَن جاءَكُم ذِكرٌ مِن رَبِّكُم عَلى رَجُلٍ مِنكُم لِيُنذِرَكُم وَاذكُروا إِذ جَعَلَكُم خُلَفاءَ مِن بَعدِ قَومِ نوحٍ وَزادَكُم فِي الخَلقِ بَسطَةً فَاذكُروا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ﴾.

✧ فعل الخيرات:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اركَعوا وَاسجُدوا وَاعبُدوا رَبَّكُم وَافعَلُوا الخَيرَ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ﴾.

✧ **بناء المكانة الاجتماعية:**

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

✧ **الصلح بين الزوجين:**

١- إرادة الصلح واستمرار الأسرة: قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾. أما من يقول أريد أن أنتقم وأريد أن أنغص عليه فهذا لا يريد الإصلاح وحديثي ليس موجها إليه.

٢- افتح قنوات التواصل وكن مستمعا جيدا.

٣- ليس هدف الاستماع الجيد أن ترد على كل خطأ وتعلق على كل قول، وإنما أن تفهم الطرف الآخر ويفهمك الطرف الآخر.

٤- ومن المتوقع أن ينفعل الطرف الآخر ويرفع صوته، وربما تلفظ بألفاظ نابية، فاصبر واستمع.

٥- من المستحسن ألا ترد على حديثه في الوقت نفسه إذا كان الجو متوترا والطرف الآخر منفعلا جدا، أجل الجواب إلى وقت آخر، وإيَّاك أن تقول: لأنك منفعل فلن أجيبك الآن، وإنما أشكره على حديثه الصريح، وقل: «دعني أفكر فيما قلته، وسوف أجيبك إن شاء الله».

٦- إياك أن تسبه إذا سبك أو تشتمه، بل تحمل هذا وأعلم أنه ضريبة فتح القنوات والاستماع.

٧- حينما تتحدث مع الطرف الآخر وتريد الإصلاح فإياك أن تحصي كل خطأ تراه وتحاسبه عليه، وتضعه على طاولة النقاش، فقط اختر أهم معوقين أو ثلاثة،

أو ربما واحدا، واترك الباقي لعامل الوقت. إذا أحصيت كل الأخطاء وواجهت بها الطرف الآخر فإن التفاهم أو الصلح بعيد المنال.

٨- في الحوار مع الطرف الآخر يمكن أن تعترف بخطئك أيضا، وتقول له أن التغير وتصحيح الأخطاء مسؤوليتنا معا، وأنا سوف أسعى للتغير، وأعينك في تغيير نفسك وتصحيح خطئك، وأنت كذلك عليك أن تعينني في تغيير نفسي وتصحيح خطأي.

٩- حينما تنظر إلى أخطاء الطرف الآخر عليك أيضا أن تنظر إلى أخطائك، فأنت لست ملاكا، ولهذا نقول: تجنب الإحصاء الدقيق للأخطاء، ربما جمع الأخطاء وإحصاؤها تحتاجه في المحكمة، أما في جلسات الصلح فالأمر بخلاف ذاك، ولهذا عليك أن تتصف هنا بالعفو والغفلة عن بعض الأخطاء، أنت بهذا تنقذ بيتك وتحمي أطفالك.

١٠- الله سبحانه يقول: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

فأعظم مصادر النزاع ما نتلفظ به في حال الخلاف والغضب؛ ولهذا عليك تجنب العبارات الجارحة والسخرية والسب.

بعض الأشخاص حينما يغضب يسب الطرف الآخر ويسب والديه وأهله وعشيرته، وهذا خطأ فظيع وعمل مؤذ وموغر للصدور، وإذا كان ولا بد فيكفي أن تسب الطرف الآخر فقط، والعقل يقول: عليك أن تذم فعله الخطأ فقط، وتجنب ذم شخصه، فضلا عن والديه وعشيرته.

١١- أظهر الاحترام والحب للطرف الآخر، فهو يستحق. ألست تعيش معه؟ أليس هو والد أطفالك وقدوتهم؟! أو أليست هي أم أطفالك وقدوتهم؟!.

١٢- كن كريما، فالهدية تذيب الجمود وتكسر الجليد، فاحرص عليها.

الدرس الأول:

قيمة الأسرة ووجوب المحافظة عليها.

الأسرة سكن للزوج وسكن للزوجة.

الأسرة حاضنة الأولاد ومكان تربيتهم.

الأسرة عماد المجتمع.

جاء الإسلام بحمايتها وحفظها.

حث الزوج على الإحسان لزوجته، فقال: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ**»[(١)]، وقال: «**لا يكرمهن إلا كريم**»[(٢)].

وقال للمرأة: «**إذا صلَّتِ المرأةُ خَمْسَها، وصامَت شهرَها، وحصَّنَتْ فرجَها، وأطاعَت زوجَها، قيلَ لها: ادخُلي الجنَّةَ مِن أيِّ أبوابِ الجنَّةِ شِئتِ**»[(٣)].

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧).
(٢) «كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» لابن عساكر (ص١٠٩).
(٣) أخرجه ابن حبان (٤١٦٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧١٥) واللفظ له.

فهرس الموضوعات

إهداء ٥
المقدمة ٧
قصة التأملات ١٠
سورة الفاتحة ١٦
سورة البقرة ٢٠
سورة آل عمران ٥٤
سورة النساء ٦٨
سورة المائدة ٨٦
سورة الأنعام ٩٥
سورة الأعراف ١١٠
سورة الأنفال ١٢٣
سورة التوبة ١٣٠
سورة يونس ١٤٤
سورة هود ١٥٧
سورة يوسف ١٦٢
سورة الرعد ١٦٧
سورة إبراهيم ١٧٠
سورة الحجر ١٧٢
سورة النحل ١٧٤
سورة الإسراء ١٨١

سورة الكهف ١٨٩
سورة طه ١٩٤
سورة الأنبياء ١٩٦
سورة الحج ١٩٨
سورة المؤمنون ٢٠٤
سورة النور ٢٠٧
سورة الفرقان ٢١٢
سورة الشعراء ٢١٥
سورة النمل ٢١٨
سورة القصص ٢٢٣
سورة العنكبوت ٢٢٦
سورة الروم ٢٣١
سورة لقمان ٢٣٥
سورة السجدة ٢٣٨
سورة الأحزاب ٢٤١
سورة سبأ ٢٤٥
سورة فاطر ٢٤٨
سورة يس ٢٥١
سورة الصافات ٢٥٣
سورة ص ٢٥٤
سورة الزمر ٢٥٦
سورة غافر ٢٥٨
سورة فصلت ٢٦١

سورة الشورى ٢٦٦
سورة الزخرف ٢٧٠
سورة الدخان ٢٧٣
سورة الجاثية.. ٢٧٣
سورة الأحقاف ٢٧٤
سورة محمد ٢٧٥
سورة ق.. ٢٧٥
سورة الطور.. ٢٧٦
سورة النجم.. ٢٧٦
سورة القمر ٢٧٧
سورة الواقعة.. ٢٧٨
سورة الحديد ٢٧٨
سورة المجادلة.. ٢٨١
سورة الحشر ٢٨٣
سورة التغابن.. ٢٨٦
سورة الطلاق ٢٨٧
سورة التحريم.. ٢٨٨
سورة الملك ٢٨٩
سورة القلم.. ٢٩١
سورة المزمل ٢٩٢
سورة القيامة ٢٩٤
سورة الإنسان ٢٩٤
سورة النازعات ٢٩٥

سورة الليل ٢٩٥
سورة الفلق ٢٩٧
سورة الناس ٢٩٧
طبيعة المجتمع المسلم في القرآن وقواعد في الحياة العامة ٢٩٩
فهرس الموضوعات ٣٠٥